شواهد الحق

في الاستغاثة بسيد الخلق

المؤلف

يوسف بن إسماعيل النبهاني

كتاب ... شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق – ص –

ويليه الأساليب البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة

كلاهما لخادم السنة وقامع البدعة فقيد الإسلام الشيخ

يوسف بن إسماعيل النبهان

::العنوان

الاستغاثة

استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجئ على معنيين

فائدة مهمة

تتمة

ومن الأدلة الدالة على صحة التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته

شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ص

ويليه الأساليب البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة

كلاهما لخادم السنة وقامع البدعة فقيد الإسلام الشيخ

يوسف بن إسماعيل النبهاني

رئيس محكمة الحقوق العليا ببيروت سابقا

الفصل الثالث

ص ١٣٦

شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويليه الأساليب البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة كلاهما لخادم السنة وقامع البدعة فقيد الإسلام الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رئيس محكمة الحقوق العليا ببيروت سابقا الفضل الثالث في بعض ما قاله أئمة العلماء وأثبتوا به مشروعية الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم قال الإمام ابن حجر في الجوهر المنظم: من خرافات ابن تيمية التي لم يقلها عالم قبله وصار بها بين أهل الإسلام مثلة أنه أنكر الاستغاثة والتوسل به صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك كما أفتى به، بل التوسل به حسن في كل حال قبل خلقه وبعد خلقه في الدنيا والآخرة. فمما يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل خلقه وأن ذلك هو سير السلف الصالح الأنبياء والأولياء وغيرهم، فقول ابن تيمية ليس له أصل من افترائه: ما أخرجه الحاكم

ص ١٣٧

وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال: ولما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما غفرت لي. قال الله يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟. قال يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال له صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك، والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزلته لديه تعالى، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه كما في الحديث الصحيح قال فما حق العباد على الله لا الواجب ؛ إذ لا يجب على الله تعالى شيء، ثم السؤال به صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا له حتى يوجب اشتراكا، وإنما هو سؤال الله تعالى بمن له عنده قدر على ومرتبة رفيعة وجاه عظيم. فمن كرامته صلى الله عليه وسلم على ربه أن لا يخيب السائل به والمتوسل إليه بجاهه، ويكفي في هوان منكر ذلك حرمانه إياه. وفي حياته صلى الله عليه وسلم ما أخرجه النسائي والترمذي وصححه أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله لي أن يعافيني، فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير لك قال فادعه وفي رواية ليس لي قائد وقد شق على فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في قضاء حاجتي لتقضى لي اللهم شفعه في وصححه أيضا البيهقي وزاد، فقام وقد أبصر وفي رواية اللهم شفعة في، وشفعني في نفسي وإنما علمه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يدع له لأنه أراد

أن يحصل منه التوجه وبذل الافتقار والانكسار والاضطرار مستغيثا به صلى الله عليه وسلم ليحصل له كما مقصوده، وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ؛ ومن ثم استعمل السلف هذا الدعاء في حاجاتهم بعد موته صلى الله عليه وسلم، وقد علمه عثمان بن حنيف الصحابي راويه لمن كان له حاجة عند عثمان بن عفان زمن إمارته بعده صلى الله عليه وسلم وعسر عليه قضاؤها منه وفعله فقضاها، رواه الطبراني والبيهقي وروى الطبراني بسند جيد أنه صلى الله عليه وسلم ذكر في دعائه بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ولا فرق بين ذكر التوسل والاستغاثة والتشفع والتوجه به صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء وكذا الأولياء، وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال كما في حديث الغار الصحيح مع كونها أعراضا فالذوات الفاضلة أولى، ولأن عمر بن الخطاب

ص ١٣٨

رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء ولم ينكر عليه، وكأن حكمة توسله به دون النبي صلى الله عليه وسلم وقبره إظهار غاية التواضع لنفسه، والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم، ففي توسله بالعباس توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، وزيادة. لا يقال لفظ التوجه والاستغاثة يوهم أن المتوجه والمستغاث به أعلى من المتوجه والمستغاث إليه لأن التوجه من الجاه وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى جاها منه،

الاستغاثة

طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان ذلك الغير أعلى منه. فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بهما أحد منهم سواه فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه، نسأل الله العافية، والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المتسغيث فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقا وإيجادا، والنبي مستغاث والغوث منه سببا وكسبا ومستغاث به مجازا، وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو سببا وكسبا أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعا فلا فرق بينه وبين السؤال لا سيما مع ما نقل أن في حديث البخاري رحمه الله تعالى في الشفاعة يوم القيامة فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه إذ هو حي يعلم سؤال من يسأله وقد صح في حديث طويل: إن الناس أصابهم قحط في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه صلى الله عليه وسلم في النوم وأخبره أنهم يسقون فكان كذلك، وفيه ائت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس: أي الرفق لأنه رضي الله عنه كان شديدا في دين الله فأتاه فأخبره فبكى، ثم قال يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه. وفي رواية

أن رائي المنام بلال بن الحارث المزني الصحابي رضي الله عنه. فعلم أنه صلى الله عليه وسلم بطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما في حياته لعلمه بسؤال من سأله كما ورد مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه بسؤاله وشفاعته صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به في كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده في حياته وبعد وفاته، وكذا في عرصات القيامة فيشفع إلى ربه، وهذا مما قام الإجماع عليه وتواترت به الأخبار. وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما

ص ١٣٩

أنه قال أوحى الله تعالى إلى عيسى صلوات الله على نبينا وعليه وسلامه: يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلو لا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على المساء فاضطرب، فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن فكيف لا يتشفع ومتوسل بمن له هذا الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه به وأولاه انتهى كلام ابن حجر. وقال الإمام السبكي بعد ذكر حديث آدم الذي فيه أسألك بحق محمد لما غفرت لي وقول الله تعالى له وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك الحديث، هو حديث صحيح الإسناد رواه الحاكم. قال وذكر معه الحاكم حديث ابن عباس أوحى الله إلى عيسى الخ. وقال الحاكم هذا حديث حسن صحيح الإسناد. قال الإمام السبكي بعد ما ذكر، وأما ما ورد من توسل نوع وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء فذكره المفسرون واكتفينا عنه بهذا الحديث لجودته وتصحيح الحاكم له، وعبارة حجر السابقة وإن كانت كافية وافية فلا بأس من ذكر بعض ما ذكره الإمام السبكي وإن تكرر بعضه مع ما تقدم عن ابن حجر رحمهم الله تعالى لأنه نقل كثيرا من عباراته وإن لم ينسب بعضها إليه. قال الإمام السبكي: اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم جائز في كل حال قبل خلقه وبعده في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ وبعد البعث في عرصات القيامة والجنة، وهو على ثلاثة أنواع: أن يتوسل به صلى الله عليه وسلم بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو بجاهه أو ببركته، فيجوز ذلك في الأحوال الثلاثة، وقد ورد في كل منها خبر صحيح، ولا فرق في المعنى بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل أو الاستغاثة أو التشفع والداعي بذلك متوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه جعله وسيلة لإجابة الله دعاءه ومستغيث به صلى الله عليه وسلم لأنه استغاث الله تعالى به صلى الله عليه وسلم على ما يقصده ومستشفع به صلى الله عليه وسلم لأنه سأل الله بجاهه صلى الله عليه وسلم، والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله تعالى قدرا ومرتبة، ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله تعالى قدر على ومرتبة رفيعة وجاه عظيم، وفي العادة أن من كان له عند الشخص قدر بحيث إنه إذا شفع عنده قبل شفاعته، فإذا

ص ١٤٠

انتسب إليه شخص في غيبته وتوسل بذلك يشفعه به وإن لم يكن حاضرا ولا شافعا ويكون ذلك المحبوب أو العظيم سببا للإجابة كما في الأدعية الصحيحة المأثورة أسألك بكل اسم لك، وأسألك بأسمائك الحسنى، وأسألك بأنك أنت الله، وأعوذ برضاك من سخطك، ومعافاتك من عقوبتك، وبك منك . وحديث الغار الذي فيه الدعاء بالأعمال الصالحة، وهو من الأحاديث الصحيحة المشهورة، فالمسؤول في هذه الدعوات كلها هو الله وحده لا شريك له، والمسؤول به مختلف، كذلك السؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا للنبي، بل سؤال لله تعالى به صلى الله عليه وسلم، وتارة يكون المسؤول به أعلى من المسؤول كما في قوله من سألكم بالله فأعطوه فالمسؤول به هنا هو الباري سبحانه وتعالى، والمسؤول هو بعض البشر، وتارة يكون المسؤول أعلى من المسؤول به كما في سؤال الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فإنه لا شك أن للنبي صلى الله عليه وسلم قدرا عنده تعالى، فمن قال أسألك بالنبي صلى الله عليه وسلم فلا شك في جوازه وكذا إذا قال بحق محمد، والمراد بالحق الرتبة والمنزلة، والحق الذي جعله الله على الخلق، أو الحق الذي جعله الله بفضله له عليه كما في الحديث الصحيح الذي قال فيه فما حق العباد على الله وليس المراد بالحق الواجب فإنه لا يجب على الله تعالى شيء، ثم ذكر أحاديث الشفاعة والتجاء الناس إلى الأنبياء. قال: وفي التجاء الناس إلى الأنبياء في ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم في الدنيا والآخرة ؛ وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه وهذا لم ينكره أحد ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا أو استغاثة ؛ وليس ذلك من باب تقرب المشركين إلى الله تعالى بعبادة غيره فإن ذلك كفر، والمسلمون إذا توسلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والصالحين لم يعبدوهم ولا أخرجهم ذلك عن توحيدهم لله تعالى وأنه هو المنفرد بالنفع والضر، وإذا جاز ذلك جاز قول القائل: أسأل الله تعالى برسوله لأنه سائل لله تعالى لا لغيره انتهت. وقد جمعت ذلك من أماكن متفرقة من كتاب الإمام السبكي [شفاء السقام: في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام]، وهو مشهور مطبوع من أراده فليراجعه. وقال السيد السمهودي في خلاصة الوفا: ولا فرق في ذلك بين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التوجه به صلى الله عليه وسلم في الحاجة، وقد يكون ذلك بمعنى طلب أن يدعو كما في حال الحياة، إذ هو غير ممتنع مع علمه بسؤال من يسأله صلى الله عليه وسلم ا هـ، وتقدم مثله في كلام ابن حجر.

ص ١٤١

استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجئ على معنيين

فقد ظهر من هذا أن استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجئ على معنيين: أحدهما أن يسأل المستغيث الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بجاهه أو بحقه أو ببركته أن يقضي حاجته، فالمستغيث على هذا هو الذي يدعو الله تعالى ويجعل واسطة القبول عنده عز وجل نبيه الأعظم وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم.

والمعنى الثاني أن يسأل المستغيث النبي صلى الله عليه وسلم ليدعو الله تعالى وليسأله قضاء حاجته لأنه حي في قبره كما يسأله الناس الشفاعة يوم القيامة فيشفع لهم، وكما سأله الناس في حياته الدنيوية الدعاء بالاستسقاء وغيره فدعا لهم بالسقيا وغيرها فاستجاب الله له، وجميع الاستغاثات الواقعة في كتابي هذا لا تخلو عن هذين المعنيين، ورأيت في كتاب [جمع الأسرار: في منع الأشرار، عن الطعن في الصوفية الأخيار] لسيدي العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ما نصه: وسئل العلامة الشهاب الرملي الشافعي رحمه الله تعالى عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد. يا شيخ فلان ونحو ذلك. فأجاب بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جائزة. قال الشيخ عبد الغني. يقول مصنف هذه الرسالة يشير إليه. يعني جواز التوسل والاستغاثة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة). قال الشيخ الرملي. وللرسل والأنبياء إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بعد موتهم. أما الأنبياء فإنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار، فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، والشهداء أيضا أحياء شوهدوا نهارا جهارا يقاتلون الكفار. وأما الأولياء فهي كرامة لهم انتهى كلام الرملي وقد ذكر الشيخ عبد الغني بعدها فتوى من العلامة الإمام الشيخ عبد الحي الشرنبلالى الحنفي من جملتها قوله رحمه الله تعالى: وأما التوسل بالأنبياء والأولياء فجائز، إذ لا يشك في مسلم أنه يعتقد في سيدي أحمد أو غيره من الأولياء أن له إيجاد شيء من قضاء مصلحة أو غيرها إلا بإرادة الله تعالى وقدرته، والمسلم متى أمكن حمل كلامه على معنى صحيح سالم من التكفير وجب المصير إليه ا ه كلام الشرنبلالى، ثم نقل الشيخ عبد الغني رضي الله عنه فتوى الشيخ سليمان الشبرخيتى المالكي بذلك وأتبعها بفتوى الشمس الشوبرى الشافعي التي قدمتها في أواخر الباب الأول من هذا الكتاب، وقال بعدها: وهذه صورة ما أجاب به الإمام الهمام الشيخ محمد الخليلي الشافعي، وذكر فتواه بطولها إلى أن قال الخليلي رحمه

الله: واعلم أن الاعتراض على القوم. يعني الصوفية مما يوجب الخذلان فيوقع فاعله في واد من الخسران كما نص على ذلك العلامة ابن حجر من أئمتنا، فمن اعترض عليهم يخشى عليه سوء الخاتمة كما وقع لكثير من الناس أنهم مقتوا بذلك ولم يفلحوا (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا). قال الشيخ الخليلي وأما قوله، يعني المعترض إنه لا يجوز التوسل بالأنبياء والأولياء، فهذا كذب وافتراء. وقد نص أئمتنا على أنه يجوز التوسل بأهل الخير والصلاح، ولا يظن عامي من العوام فضلا عن الخواص أن نحو سيدي أحمد البدوي يحدث شيئا في الكون، وإنما يرون أن رتبتهم تقصر عن السؤال من الله تعالى، فيتوسلون بمن ذكر تبركا بهم كما لا يخفى. قال رحمه الله: إذا علمت ذلك علمت أن التوسل بالأنبياء والأولياء جائز وارد عن السلف والخلف سواء كانوا أحياء أم أمواتا ؛ ولا ينكر ذلك إلا من ابتلى بالحرمان أو سوء العقيدة، نعوذ بالله منه ومن سيرته فجميع ما قاله مردود عليه ووجب أن لا يعول

عليه. وقال العارف النابلسي قبل ذلك في كتابه المذكور نقلا عن فتوى الشيخ الإمام العلامة أبي العز أحمد بن العجمي الشافعي الوفائي الأزهري ؛ وقول: يا سيدي أحمد أو يا شيخ فلان ليس من الاشراك لأن القصد التوسل والاستغاثة. قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) ا هـ.

الفصل الرابع في توضيح هذه المسألة يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: اعلم أن جميع المسلمين الزائرين والمستغيثين بعباد الله الصالحين ولا سيما الأنبياء والمرسلين خصوصا سيدهم الأعظم صلى الله عليه وسلم هم مع كمال تعظيمهم لأولئك السادات بالزيارات والاستغاثات يعلمون أنهم من جملة عبيد الله تعالى لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من دون الله تعالى ضرا ولا نفعا ولكنهم أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم زلفى لديه، وهو سبحانه قد اتخذهم ولا سيما المرسلين منهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ دينه وشرائعه، فاتخذهم خلقه المجيبون لدعوتهم المصدقون بنبوتهم وصفوتهم وسائط إليه في غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم لعلمهم بأن المناسبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل وإن كانوا كلهم عبيده تعالى ؛ فإذا علم ذلك يعلم يقينا أن تعظيمهم وتوقيرهم والتوسل بهم إليه تعالى فضلا عن كونه

لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى هو من لباب توحيده وخالص دينه وأحسن أنواع عباداته عز وجل، فكيف يقال مع هذا إن تعظيمهم يخل بالتوحيد، هذا والله عكس الموضوع، ولا يقدم على القول به مسلم موفق، فالحمد الله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه ولو حصل من المخالفين أدنى تدقيق لعرفوا أنفسهم على الباطل بشذوذهم عن السواد الأعظم، وهو جمهور أمته صلى الله عليه وسلم حتى إن العلم بهذه المسألة: أي مشروعية السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، ومثله الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة عند جميع العلماء والعوام من أهل الإسلام، حتى قال بعض أئمة المالكية كما نقله السبكي في [شفاء السقام] وابن حجر في [الجوهر المنظم] بكفر المانعين لذلك وإن كان هذا القول غير معتمد، وليس في شيء من الاستغاثة وشد الرحل ما يأباه العقل أو النقل، وحديث منه شد الرحال هو وارد في المساجد بالتصريح، ولا داعي إلى تعميمه في غيرها، وعبارته لا تفيد ذلك من جهة العربية، وهو غير صحيح من جهة الأحكام الشرعية، وتفصيل ذلك تقدم في الباب الأول، وكل ما أتوا به في هذا الباب من المحاذير والأوهام تأباه هذه الشريعة الحنيفية السمحة ولا يقتضيه دين الإسلام ولا يخفى على أحد من المسلمين، بل وغير المسلمين عنده أدنى إلمام بمعرفة هذا الدين المبين وأحوال من اتبعه من المؤمنين أن جمهور الأمة المحمدية من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من الخواص والعوام من جميع مذاهب الإسلام، متفقون بالقول والفعل على استحسان الاستغاثة والتوسل والتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى لقضاء الحوائج الدنيوية والأخروية، واستحباب شد الرحال، والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم من الأقطار البعيدة والقريبة حتى صار ذلك عندهم بمنزلة الأمور المعلومة من الدين بالضرورة بحيث لا يجهله

ولا يتصور خلافه أحد، بل لا يتوهم خلافه ولا يتخيله كثير من طلبة العلم فضلا عن جمهور العامة الذين لا يخطر شيء من ذلك في بال أحد منهم، بل ولا يجوزون أنه يوجد مخالف من المسلمين في استحسان ذلك، وما زالت الأمة بحمد الله تعالى كذلك يتلقاه المتأخرون عن المتقدمين، ويعتقدون كما هو الواقع أن ذلك من أفضل الطاعات وأكمل القربات إلى أن شذ عنهم أقل من القليل من بعض العلماء أشهرهم في ذلك ابن تيمية وتلميذاه المذكوران، وكل المخالفين لو جمعوا في سالف الأعصار لا يجتمع منهم إلا شر ذمة في غاية القلة لو نسبناها إلى ذلك الجمهور الأعظم من علماء الأمة على اختلاف المذاهب والمشارب لوجدنا في مقابلة كل واحد من المخالفين ألوف ألوف من أولئك العلماء

ص ١٤٤

الأعلام فضلا عمن سواهم من الخواص والعوام، وهذا وحده كاف لظهور أن الحق مع السواد الأعظم الذي يجب إتباعه عند وقوع الخلاف كما ورد عن الشارع صلى الله عليه وسلم لامع تلك الشر ذمة الشاذة. وقد ورد في الحديث عن النبي المختار من شذ شذ في النار وكل عاقل صحبه أدنى توفيق إذا أعمل فكره قليلا يدرك أن الحق الواضح مع أولئك الجماهير والخطأ الفاضح مع ذلك الثر القليل مع أن ما قاله جماهير العلماء وعملوا به وشنعوا على مخالفه وعليه عمل الأمة من جواز الاستغاثة به والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم فيه تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم الذي نحن مكلفون به شرعا من جانب الله تعالى تكليفا لا مندوحة عنه بل لا يصح ولا يتم الإيمان إلا به كما ورد ذلك في الكتاب والسنة واستفاض بين الأمة وما زعمته تلك الشر ذمة الشاذة فيه عدم الرعاية لجنابه الشريف وقدره المنيف صلى الله عليه وسلم، ولا ينفعهم ما يلقونه من الأوهام، ويغالطون به أنفسهم، ويلبسون به على العوام مما تأباه ذوو الأحلام، وتجل عن محاسن دين الإسلام، من أن ذلك شرك في تعظيم الملك العلام سبحانه وتعالى، فإن ذلك دليل على قصور الأفهام التي لبس عليها الشيطان وحيرها في هذا الشأن، حتى جعلهم يستنبطون في ذلك بحسب أوهامهم أحكاما تأباها هذه الشريعة السمحة، التي ليلها مثل نهارها، ولا يضل فيها إلا ضال، ويفهمون من بعض آياتها وأحاديثها عكس مقصود الشارع، ولا سيما فيما يتعلق بسيد الوجود وصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم، ويلبسون بذلك على الخلق، ويعتقدون خلاف الحقيقة والحق، ويخالفون هذه الأمة المحمدية التي لا تجتمع على ضلالة، وقد ألهمها الله تعالى بفضله رشدها وهداها إلى معرفة درجات التعظيم الواجب الله تعالى، وسادات عبيده الكرام الذين اصطفاهم من الأنام، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم، ولا يشك عاقل بأن تعظيم خواص عبيد الله وأصفيائه من الأنبياء والأولياء في حياتهم وبعد مماتهم هو في الحقيقة تعظيم لله تعالى، ولا يفهم موفق أن في ذلك شركا مع الربوبية لأنهم عبيدة الطائعون وخدامه الصادقون، الذين قضوا أعمارهم في خدمته كما يحب ويرضى سبحانه وتعالى، وكانوا الوسائط بينه وبين خلقه في إرشادهم وهدايتهم وتبليغهم شرائعه وتعريفهم دينه وكيفية عبادته وما يجب له تعالى من أوصاف الكمال

وما يستحيل عليه من أوصاف النقص، وبذلك امتازوا عن سائر عبيده عز وجل، وصاروا أقربهم وأحبهم إليه، فاستحقوا بذلك أن معظمهم الناس لا لذاتهم بل لعلمهم أن تعظيمهم إياهم هو من أجل تعظيم الله لهم، لهو

ص ١٤٥

تعظيم له سبحانه وتعالى، وليس هذا من العلوم الدقيقة التي تختص بها العلماء الأعلام ولا تدركها العوام، بل هو من الأمور التي تدرك بالبداهة، وقد جبلت عليها طبائع الناس عالمهم وجاهلهم، إذا استوى أدنى الناس عقلا وأكثرهم فضلا في معرفة أن إكرام عبيد السلطان وأتباعه وتعظيمهم هو من أحسن وجوه التقرب إليه لقضاء حوائجهم عنده، وكلما كان ذلك العبد أو التابع أقرب له وأحب إليه كان إكرامه وتعظيمه والتوسل به إليه أقرب في نجاح الحاجة وحصول المقصود، كما أنه يغضبه تحقير عبيده وأتباعه فيترتب على ذلك سخطه كما ترتب على تعظيمهم وإكرامهم رضاه، وهكذا الأمر هنا في تعظيم أنبياء الله تعالى وأصفيائه وخواص عبيده، فهو من أقوى أسباب رضاه تعالى كما أن تحقيرهم من أقوى أسباب غضبه عز وجل. واعلم أنه لا عبرة في المحاذير الموهومة التي ذكروها لأنها فضلا عن كونها لا مقبولة ولا معقولة هي إلى الآن في كل هذه الأعصار لم يحصل منها شيء، فلم يترتب على زيارتهم، والاستغاثة بهم دعوى الألوهية في أحد منهم من المستغيثين والزائرين، والحمد لله رب العالمين. وأنت إذا نظرت إلى كل فرد فرد من أفراد المسلمين عامتهم وخاصتهم لا تجد في نفس أحد منهم غير مجرد التقرب إلى الله تعالى لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية، بالاستغاثات والزيارات لأولئك السادات مع علمهم بأنهم عبيد الله تعالى ليس لهم من الأمر شيء فقلوب المسلمين وجوارحهم ولحمهم ودمهم مجبولة – والحمد لله – على توحيد الله تعالى واعتقاد أنه الفعال المطلق المستحق للتعظيم بالأصالة وحده لا شريك له، وتعظيمهم لسواه من خواص عبيده إنما يكون بقدر منزلة ذلك العبد عند الله تعالى بحسب ما علموه، فهم يعظمون حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الخلق لعلمهم أنه أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم لديه، ثم يعظمون بعده الأنبياء المرسلين أكثر من غير المرسلين لأن درجاتهم في الفضل تلي درجته صلى الله عليه وسلم، ثم يعظمون بعدهم سائر الأنبياء أكثر من الأولياء لعلمهم بأنهم أفضل منهم عند الله تعالى، ثم يعظمون أهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وسلم بحسب ما علموه من درجاتهم عند الله ورسوله، وكذلك سائر الأولياء يعظمونهم بحسب ما ثبت في نفوسهم من قربهم من الله تعالى. أما آل النبي وأصحابه رضي الله عنهم، فقد جعلت لهم هذه القرابة والصحبة مزية (١٠ – شواهد الحق)

ص ١٤٦

امتازوا بها عند الله تعالى ورسوله عن سائر الأولياء تقتضي تعظيمهم لمجرد القرابة والصحابة وهم مع ذلك

درجات بحسب ما عندهم من الفضل والتقوى ومحاسن الصفات. وأما الأولياء وهم المؤمنون المتقون والعلماء العاملون والغزاة المجاهدون فهم إنما يمتازون عن غيرهم بعلمهم وتقواهم وما فضلهم الله به من الكرامات وخوارق العادات، وما خدموا به هذه الشريعة المحمدية ونفعوا به الأمة الإسلامية من العلوم والمعارف والفتوحات والذب عن المسلمين والإسلام: بعضهم بحد القلم، وبعضهم بحد الحسام، فمتى ثبت عند المسلمين: إما بالمشاهدة أو التواتر أو نقل الثقات من المؤلفين وغيرهم أن فلانا كان من الأولياء العارفين أو من العلماء العاملين أو من المؤمنين الصالحين أو من الشهداء والمجاهدين يعظمونه بالزيارة والتوسل بحسب ما ثبت في نفوسهم من درجة قربه إلى الله تعالى وحسن طاعته لمولاه عز وجل، ولا يعظمون أحدا منهم لذاته أصلا ؛ فالتعظيم كله راجع لله تعالى فهو لا شك من جملة الطاعات له عز وجل التي يؤجرون عليها إن شاء الله تعالى، ولو فرضنا أن بعض أولئك المزارين ليس كما ظنه بهم الزائرون من الولاية والصلاح، فهم بذلك إنما والوا أولياء الله وأحبوهم في الله وهم يعلمون يقينا أنه لا أحد من خلق الله يستحق معه تعالى ذرة من التعظيم لذاته، بل ذلك كله راجع له سبحانه وتعالى بالأصالة، وهو من فضله الذي تكرم عليهم بالأوصاف الجميلة التي ميزهم بها عن سائر عبيده، فنالوا منهم لأجله ذلك التكريم والتعظيم وخلع عليهم حلل كرامته في حياتهم وبعد مماتهم وفي دنياهم وآخرتهم وهو البر الكريم ؛ فمن حاول من تلك الشر ذمة الشاذة شر ذمة ابن تيمية أن لا يعظم أحدا من خواص عبيد الله الصالحين زاعما أن ذلك يخل بتعظيم الله تعالى فقد خالف الحق وعكس الحقيقة وتعدى برأيه الفاسد على حقوق الله تعالى وأخل بذلك في تعظيمه اللائق بأوصاف ربوبيته وسيادته المطلقة، وأراد أن يحجر عليه عز وجل اختياره المطلق في تخصيص من شاء من الأصفياء عبيده بالأوصاف الجميلة التي تقربهم إليه وتحمل الناس على تعظيمهم لأجله والتوسل بهم لديه سبحانه وتعالى وبعكس حب المسلمين لأولياء الله تعالى بغضهم لأعدائه عز وجل، فتراهم يبغضونه أحياء وأمواتا وما ذاك إلا محبة في الله تعالى، وهم مكلفون شرعا بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه سبحانه وتعالى، وكم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وردت في ذلك دلت على كثرة اعتناء الشارع بالحب في الله والبغض في الله كما وردت آيات وأحاديث كثيرة في الثناء على أنبياء الله تعالى وعباده الصالحين، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم، أليس ذلك من تعظيم الله تعالى لهم حبه إياهم ؛ كما

أن ما ورد من الآيات والأحاديث في ذم أعدائه تعالى هو تحقير من الله تعالى لهم. أليس من تمام طاعته تعالى أن نعظم ونحب أصفياءه الذين أثنى عليهم وعظمهم، ونحقر ونبغض أعداءه الذين ذمهم وحقرهم؟ أليس هو تعالى الذي دلنا بالثناء على أوليائه على رعايته لهم وعلو مقامهم عنده ومحبته إياهم، فإذا عظمناهم وتقربنا وتشفعنا وتوسلنا بهم إليه لقضاء حوائجنا الدنيوية والأخروية مع اعتقادنا الجازم الذي لا يعتريه خلل ولا يشوبه خطأ ولا زلل أنهم عبيده، وليس لهم معه من الأمر شيء، وأنه تعالى يشفع من شاء منهم ويرد شفاعة

من شاء (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ولا يجب عليه تعالى لأحد شيء، وإنما هو من فضله أثنى عليهم في كتابه وأثنى عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم في أحاديثه ببيان أوصافهم الجميلة، وهي كلها ترجع إلى صدق عبوديتهم لله تعالى وحسن خدمتهم له عز وجل فعظمناهم لذلك واتخذناهم وسائط لقضاء حوائجنا عنده لكونهم وإن شاركونا في أصل العبودية له تعالى، فقد امتازوا عنا بما تفضل الله عليهم به من الرسالة والنبوة والولاية وكثرة العلم والعمل والمعرفة والطاعات وسائر الخدمات التي تليق به تعالى أنكون بذلك قد أشركنا بعبادته تعالى، أو نكون قد أطعناه سبحانه وتعالى بتعظيم من عظم الله واحتقار أنفسنا عن أن نكون أهلا لطلب حوائجنا منه تعالى بلا واسطة لكثرة ذنوبنا وتقصيرنا في طاعة مولانا عز وجل ولذلك اتخذنا أفضل عبيدة وسائل إليه لنوال فضله، فهذا لا يشك عاقل بأنه من حسن الأدب مع الله تعالى الذي يترتب عليه رضاه، والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. واعلم أن هذه الشر ذمة الشاذة التي تمنع من ذلك هي توافق جمهور العلماء والمسلمين في أن الأنبياء الله تعالى وأوليائه خصوصية عند الله تعالى امتازوا بها عن سائر الناس في حياتهم ويوم القيامة وأنه يجوز الاستغاثة والتوسل والاستشفاع بهم إلى الله تعالى في هاتين الحالتين لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، ويسلمون حياة الأنبياء في قبورهم لصحة الأحاديث الكثيرة بها ؛ ولكن يقولون إنها حياة برزخية دون حياة الدنيا والآخرة، ويسلمون أن لأرواح الأولياء بل لأرواح سائر المؤمنين وغيرهم اتصالا بأجسامهم في قبورهم وأنها تزورها في بعض الأحيان وأنهم يعلمون بمن يزورهم، وأن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحي، ولذلك حرم الجلوس على القبور والمشي عليها لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، وأنه يستحب زيارة القبور ومخاطبة الأموات بما ورد في الأحاديث الصحيحة من قول الزائر: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإذا كان الأمر كذلك فلم

لا يجوز التوسل والاستغاثة والاستشفاع بأصحاب الخصوصيات منهم الأنبياء والأولياء بعد مماتهم كما جاز قبل ذلك في حياتهم وبعد ذلك يوم القيامة، والله تعالى في جميع المواطن الثلاثة هو الله تعالى وحده لا شريك له وهم خواص عبيده الذين جاز التوسل بهم إليه تعالى من قبل ومن بعد فلم لا يجوز في البين، وتعظيمهم لأجله هو في الحقيقة راجع إليه تعالى، ولا وجه لذم من فعله والاعتراض عليه وأي محذور في ذلك كما زعموه ونحن من أول الإسلام إلى الآن لم نسمع بأحد من المسلمين اعتقد الألوهية في واحد من الأنبياء والصالحين بعد موتهم بل الذين ضل بهم بعض الناس منهم واعتقدوا فيهم الألوهية كسيدنا عيسى عليه السلام من أنبياء الله وسيدنا على رضي الله عنه من أوليائه تعالى. إنما ضلوا بهم في حياتهم لما شاهدوه منهم من خوارق العادات واستمر بهم ذلك الضلال إلى ما بعد، فأصل ضلالهم لم يقع منهم من زيارتهم للقبور واستغاثتهم بهم بل وقع في حياتهم كما علمت، والمخالفون لا يمنعون الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والسفر لزيارتهم في حياتهم، فظهر أن المحذور الذي ذكروه لا يعول عليه ولا يلتفت إليه، وأن زعمهم الفرق بين

الحياة والممات ويوم القيامة هو في غير محله، إذ هذا الفرق إنما هو بحسب ما عندهم. وأما الله تعالى الذي اختص خواص عبيده بما اختصهم به من الأوصاف الجميلة التي أجلها صدق عبوديتهم وحسن عبادتهم له تعالى فلا فرق عنده بين هذه المواطن الثلاثة قد استوى عنده عز وجل رضاه عنهم ومحبته إياهم في حياتهم ومماتهم ويوم القيامة مع أن صفاء أرواحهم الطاهرة بعد الممات لا ينكره إلا جاهل أو مكابر. واعلم أن جميع المسلمين على علم يقيني بأن الله تعالى هو السيد المطلق للخلائق أجمعين وكلهم عبيده، قد اشترك في وصف العبودية له عز وجل أتقاهم وأشقاهم، ولكنهم فيها درجات، فأشدهم عبودية له تعالى الأنبياء والملائكة لأن معرفتهم بعظمته وجلاله أشد من معرفة من هو دونهم، وهم أيضا درجات أعظمهم درجة وأعلاهم في العبودية رتبة سيدنا محمد سيد عبيد الله وأحبهم إليه وأفضلهم من كل الوجوه لديه، وتلي رتبته صلى الله عليه وسلم في العبودية رتب الأنبياء ورؤساء الملائكة ثم عوامهم وأولياء الموحدين، ثم سائر المؤمنين بحسب درجاتهم في التقوى ومعرفة الله تعالى ؛ وأدنى الناس في مراتب العبودية الكفار الذين أشركوا بالله تعالى فلم يخلصوا عبوديتهم له بل زعموا أنهم عبيد غيره سبحانه وتعالى، وإن كان لسان حالهم يكذبهم كعباد الأصنام وعباد المسيح عليه السلام. إذا علمت ذلك تعلم أن قلة الشرف للخلق وزيادته بحسب قلة وصف العبودية فيهم

ص ١٤٩

وزيادته، فكلما كانت العبودية أقوى كان الشرف أعلى، ومن هنا يظهر جليا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم إنما ساد الخلق على الإطلاق بعد الملك الخلاق بعلو درجته وارتفاع نزلته وسمو مرتبته في العبودية لله تعالى فهو العبد الخالص الذي لم يشم رائحة الألوهية وكذلك سائر الأنبياء ووراثهم الأولياء إلا أنه صلى الله عليه وسلم أمكنهم في ذلك، وقد حماه الله تعالى من أن يدعى فيه الألوهية أحد من الناس كما ادعوها في سيدنا عيسى عليه السلام وعلي رضي الله عنه مع أنه صلى الله عليه وسلم قد ظهر له من المعجزات والفضائل وخوارق العادات ما لم يشاركه فيه أحد، وهذه أمته صلى الله عليه وسلم مع شدة محبتها له أكثر من محبة سائر الأمم لأنبيائهم لم نسمع بأحد قط منهم ادعى فيه صلى الله عليه وسلم الألوهية من عهده إلى الآن. فتبين أن المحاذير التي تخيلها ابن تيمية وجماعته لا يلتفت إليها ولا يعول عليها على أنه لم يحصل على شيء منها، وإنما هي مجرد خيالات وأوهام لا ينبني عليها أحكام، والأحاديث التي استدلوا بها لذلك إنما حملوها على غير محاملها كما ذكره العلماء ونقلته عنهم في مواضعه من هذا الكتاب.

فائدة مهمة

قال العارف الكبير الشهير سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في [المنن الكبرى]: سمعت سيدي عليا الخواص رضي الله عنه يقول: إياكم أن تسألوا في حوائجكم الأولياء الذين ماتوا فإن غالبهم لا تصرف له في القبر، وأما غير الغالب: كالإمام الشافعي رضي الله عنه، والإمام الليث رضي الله عنه، وسيدي أحمد

البدوي رضي الله عنه وأضرابهم فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف في قبورهم بحسب صدق من توجه إليهم. قال: أي الخواص رضي الله عنه، وقد استدارت أبواب جميع الأولياء رضي الله تعالى عنهم لتغلق وما بقي مفتوحا إلا باب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وزاده فضلا وشرفا لديه، فمن كان له حاجة فليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة بتوجه تام، ثم يسأله في قضاء حاجته فإنها تقضى إن شاء الله تعالى.

تتمة

أذكر فيها كلام بعض أئمة العلماء والأولياء في زيارة قبور الصالحين والانتفاع بزيارتهم وصفاء أرواحهم بعد مماتهم قال سيدي العلامة السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى في كتابه [تقريب الأصول لتسهيل الوصول] قد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد وفاته تتعلق روحه بمريديه فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات. قال: وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد، فإنه قال رضي الله عنه: الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر

ص ١٥٠

من اعتنائه بهم في حياته لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد، والحي فيه خصوصية وبشرية، وربما غلبت إحداهما الأخرى وخصوصا في هذا الزمان فإنها تغلب البشرية، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط. وقال القطب الحداد أيضا: إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة، فهم أحياء في قبورهم، وإذا كان الولي حيا في قبره فإنه لم يفقه شيئا من علمه وعقله وقواه الروحانية بل تزداد أرواحهم بعد الموت بصيرة وعلما وحياة روحانية وتوجها إلى الله تعالى، فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى في شيء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراما لهم، وهذا معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف، فالتصرف الحقيقي الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى وحده لا شريك له، ولا تأثير للولي ولا غيره في شيء قط لا حيا ولا ميتا، فمن اعتقد أن للولي أو غيره تأثيرا في شيء فهو كافر بالله تعالى، فأهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله تعالى ؛ فمن توجه إليهم وتوسل بهم فإنهم يتوجهون إلى الله تعالى في حصول مطلوبه، فالتصرف الحاصل منهم هو توجههم بأرواحهم إلى الله تعالى والتصرف الحقيقي لله وحده، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التي لا تأثير لها، وإنما يوجد الأمر عندها لا بها على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد ا هـ. ثم ذكر في كتابه المذكور شيئا من كلام سيدي أبي المواهب الشاذلي، ومنه قوله سمعت شيخنا أبا عثمان المغربي رضي الله عنه يقول: إذا زار الإنسان قبر الولي فإن ذلك الولي يعرفه، وإذا سلم عليه يرد عليه السلام وإذا ذكر الله على قبره ذكر معه لا سيما إن ذكر لا إله إلا الله فإنه يقوم ويجلس معه متربعا ويذكر معه، ثم قال الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه: وحاشا قلوب العارفين أن تخبر بغير فهم، ومعلوم أن الأولياء أحياء في قبورهم إنما ينقلون من دار إلى دار، فحرمتهم أموات كحرمتهم أحياء، والأدب معهم بعد موتهم كالأدب معهم حال الحياة وفي حال الموت، وإذا مات الولي صلى عليه جميع أرواح الأنبياء

والأولياء. قال: وعلى هذا الذي ذكره شيخنا قول صاحب الحقائق والدقائق حاشا الصوفي أن يموت. وكان الشيخ أبو المواهب رضي الله عنه أيضا يقول: من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتا في قبره فيربي مريده وهو في قبره ويسمع مريده صوته من القبر ولله عباد يتولى تربيتهم النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم.

ص ١٥١

قال الإمام فخر الدين الرازي في المطالب في الفصل الثالث عشر في بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى: إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجواهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير في نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة. فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقا بتلك التربة أيضا، فحينئذ يحصل لنفس الزائر الحي ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب إجماعهما على تلك التربة، فصار هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي في المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت، وكل ما حصل في ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثار القوية الكاملة ينعكس من نور إلى روح هذا الحي الزائر، وبهذه الطريقة تصير تلك الزيارة سببا لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائر، فهذا هو السبب والأصل في مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل منها أسرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى انتهى كلام الرازي. قال الشيخ أبو المواهب: قال بعض العارفين: وللأولياء عند زيارة الأولياء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المزور بالزائر وتوجهه إليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته، انتهى ما نقلته من [تقريب الأصول] للسيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى. الباب الثالث في نقل كلام الإمام العلامة ناصر السنة في هذا الزمان سيدي السيد أحمد دحلان مفتي الشافعية في مكة المشرفة في كتابه [خلاصة الكلام: في بيان أمراء البلد الحرام] وله كتاب مستقل في الرد على الوهابية، ولكن كلامه في الكتاب المذكور كاف واف شاف، وها أنا أنقله برمته وإن تكرر بعضه مع ما تقدم في الباب الأول والثاني، وهو جامع لكل ما يلزم ذكره في هذا الشأن من إثبات الحق ودحض الأباطيل، ورد شبههم بأوضح بيان وأقوى دليل. قال رحمه الله تعالى: ذكر الشبه التي تمسك بها الوهابية: ينبغي أولا أن نذكر الشبهات التي تمسك بها ابن عبد الوهاب في إضلال العباد ؛ ثم نذكر الرد عليه ببيان أن

ص ١٥٢

كل ما تمسك به زور وافتراء وتلبيس على عوام الموحدين ؛ فمن شبهاته التي تمسك بها زعمه أن الناس مشركون في توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين وفي زيارتهم قبره

صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم: يا رسول الله نسألك الشفاعة، وزعم أن ذلك كله إشراك وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين كقوله تعالى (فلا تدعوا مع الله أحدا) وقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله تعالى (ولا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) وقوله تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) وقوله تعالى له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) وقوله تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير: إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) وقوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) وأمثال هذه الآيات كثير في القرآن كلها حملها على الموحدين. قال محمد بن عبد الوهاب: إن من استغاث أو توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلا في عموم هذه الآيات، وجعل زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أيضا مثل ذلك، وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الأصنام: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئا، بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) فما حكم الله عليهم بالكفر والاشراك إلا لقولهم (ليقربونا إلى الله زلفى) فهؤلاء مثلهم هكذا احتج محمد بن عبد الوهاب ومن تبعه على المؤمنين، وهي حجة باطلة فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء

الله، بل هم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون له ولا يعتقدون استحقاقهم العبادة ولا أنهم يخلقون شيئا ولا أنهم يملكون نفعا أو ضرا، وإنما قصدوا التبرك بهم لكونهم أحباء الله المقربين الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم الله عباده، ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة سنذكر لك كثيرا منها ؛ فاعتقاد المسلمين أن الخالق النافع الضار هو الله وحده، ولا يعتقدون استحقاق العبادة إلا لله وحده، ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه، وأما المشركون الذين نزلت فيهم الآيات السابق ذكرها، فكانوا يتخذون الأصنام آلهة والإله معناه المستحق للعبادة، فهم يعتقدون استحقاق الأصنام للعبادة ؛ فاعتقادهم استحقاقها العبادة هو الذي أوقعهم

في الشرك فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يجوز لمحمد بن عبد الوهاب وأتباعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام. إذا علمت هذا تعلم أن جميع الآيات المتقدم ذكرها وما ماثلها من الآيات خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيها أحد من المؤمنين لأنه لا يعتقدون ألوهية غير الله تعالى ولا يعتقدون استحقاق العبادة لغيره، وقد تقدم حديث البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما في وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فحملوها على المؤمنين فهذا الوصف صادق على ابن عبد الوهاب وأتباعه فيما صنعوه، ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل إشراكا ما كان يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها فإنهم جميعهم كانوا يتوسلون، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وهذا توسل صريح لا شك فيه، وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه رضي الله عنهم ويأمرهم بالإتيان به. فقد روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير، وذكره أيضا كثير من الأئمة في كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون عند الخروج إلى الصلاة، بل قال بعضهم ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند خروجه

ص ١٥٤

إلى الصلاة، فانظر قوله أسألك بحق السائلين عليك فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن وروى الحديث المذكور أيضا ابن السني بإسناد صحيح عن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه، ولفظه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال: بسم الله آمنت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق مخرجي هذا فإني لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك أسألك أن تعيذني من النار وأن تدخلني الجنة ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل اليوم والليلة من حديث أبي سعيد بلفظ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال: اللهم إلى آخر ما تقدم في رواية ابن السني، ورواه البيهقي في كتاب الدعوات من حديث أبي سعيد أيضا، ومحل الاستدلال قوله بحق السائلين عليك فهذا توسل صدر منه صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه أن يقولوه، ولم يزل السلف من التابعين وأتباعهم ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم ينكر عليهم أحد في الدعاء به. ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من التوسل قوله صلى الله عليه وسلم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي ،

وهذا اللفظ قطعة من حديث طويل رواه الطبراني في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها وكانت ربت النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها وقال رحمك الله يا أمي بعد أمي وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها، قال فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وسلم بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال: الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين وروى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه مثل ذلك، وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه ذكر ذلك كله الحافظ السيوطي في الجامع الكبير. ومن الأحاديث الصحيحة التي جاء التصريح فيها بالتوسل ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف، وهو صحابي مشهور رضي الله عنه

ص ١٥٥

أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال ادع الله أن يعافيني، فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير، قال فادعه، فأمره أن يتوضأ فليحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه في فعاد وقد أبصر . وفي رواية قال ابن حنيف فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط وخرج هذا الحديث أيضا البخاري في تاريخه وابن ماجه والحاكم في المستدرك بإسناد صحيح، وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير والصغير، ففي هذا الحديث والتوسل والنداء، وابن عبد الوهاب يمنع كلا منهما ويحكم بكفر من فعل ذلك، وليس لابن عبد الوهاب أن يقول إن هذا إنما كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الدعاء استعملته أيضا الصحابة والتابعون بعدو فإنه صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم. فقد روى الطبراني والبيهقي أن رجلا كان يختلف إلى عثمان رضي الله عنه في زمن خلافته في حاجة فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف، فقال له ائت الميضأة فتوضأ ثم أئت المسجد فصل، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك لتقضى حاجتي وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه، فجاءه البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه، وقال اذكر حاجتك فذكر حاجته فقضاها، ثم قال له ما كان لك من حاجة فاذكرها، ثم خرج من عنده فلقى ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيرا ما كان ينظر في حاجتي حتى كلمته لي، فقال ابن حنيف والله ما كلمته ولكني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره إلى آخر الحديث المتقدم، فهذا توسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

وروى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء بلال بن الحارث رضي الله عنه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وأخبره أنهم يسقون وليس الاستدلال بالرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن رؤياه وإن كان حقا لكن لا تثبت بها الأحكام لإمكان اشتباه الكلام على الرائي لا لشك في الرؤيا. وإنما الاستدلال بفعل بلال بن الحارث في اليقظة فإنه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فإتيانه لقبر النبي صلى الله عليه وسلم وندائه له وطلبه أن يستسقي لأمته دليل على أن ذلك

ص ١٥٦

جائز، وهو من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم، وذلك من أعظم القربات، وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم قبل وجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها. قال بعض المفسرون في قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) إن الكلمات هي توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم. وروى البيهقي بإسناد صحيح في كتابه [دلائل النبوة] الذي قال فيه الحافظ الذهبي عليك به فإنه كله هدى ونور. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي فقال الله تعالى يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليه فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك ، ورواه أيضا الحاكم وصححه والطبراني، وزاد فيه وهو آخر الأنبياء من ذريتك . وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى للخليفة الثاني من بني العباس، وهو المنصور جد الخلفاء العباسيين. وذلك أنه لما حج المنصور المذكور وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم سأل الإمام مالكا وهو بالمسجد النبوي، وقال له يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك. قال تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ذكره القاضي عياض في الشفاء وساقه بإسناد صحيح، وذكره الإمام السبكي في [شفاء السقام في زيارة خير الأنام] والسيد السمهودي في [خلاصة الوفا] والعلامة القسطلاني في [المواهب اللدنية]، والعلامة ابن حجر في [تحفة الزوار، والجوهر المنظم] وذكره كثير من أرباب المناسك في آداب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم. قال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه، وقال العلامة الزرقاني في [شرح المواهب] ورواها ابن فهد بإسناد جيد، ورواها القاضي عياض في الشفاء بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس في إسنادها وضاع ولا كذاب ومراده بذلك الرد على من لم يصدق

رواية ذلك عن الإمام مالك، ونسب له كراهية

ص ١٥٧

استقبال القبر، فنسبة الكراهة إلى الإمام مالك مردودة، واستسقى عمر رضي الله عنه في زمن خلافته بالعباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا، وذلك مذكور في صحيح البخاري من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه وذلك من التوسل، بل في المواهب اللدنية للعلامة القسطلاني أن عمر رضي الله عنه لما استسقى بالعباس رضي الله عنه. قال: يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا به في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى، ففيه التصريح بالتوسل. وبهذا يبطل قول من منع التوسل مطلقا سواء كان بالأحياء أو بالأموات، وقول من منع ذلك بغير النبي صلى الله عليه وسلم، لأن فعل عمر رضي الله عنه حجة لقوله صلى الله عليه وسلم إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وغيره، وروى الطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل عن الفضل بن العباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معي وأنا مع عمر والحق بعدي مع عمر حيث كان ، وهذا مثل ما صح في حق على رضي الله عنه حيث قال صلى الله عليه وسلم في حقه وأدر الحق معه حيث دار وهو حديث صحيح رواه كثير من أصحاب السنن، فكل من عمر وعلي رضي الله عنهما يكون الحق معه حيث كان، وهذان الحديثان من جملة الأدلة التي استدل بها أهل السنة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة، لأن عليا رضي الله عنه كان مع الخلفاء الثلاثة قبله لم ينازعهم في الخلافة، فلما جاءت الخلافة له ونازعه غيره قاتله، ومن الأدلة الدالة على أن توسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه حجة على جواز التوسل قوله صلى الله عليه وسلم لو كان بعدي نبي لكان عمر رواه الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامر وغيره. وروى الطبراني في الكبير عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر فإنهما حبل الله الممدود من تمسك بهما فقد تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، وإنما استسقى عمر رضي الله عنه بالعباس ولم يستسق بالنبي صلى الله عليه وسلم ليبين للناس أن الاستسقاء بغير النبي صلى الله عليه وسلم جائز ومشروع لا حرج فيه، لأن الاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم كان معلوما عندهم فلربما يتوهم بعض الناس أنه لا يجوز الاستسقاء بغير النبي صلى الله عليه وسلم فبين لهم عمر رضي الله عنه الجواز، ولو استسقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لأفهم أنه لا يجوز الاستسقاء

ص ١٥٨

بغيره صلى الله عليه وسلم، ولا يصح أن يقال إنما استسقى بالعباس ولم يستسق بالنبي صلى الله عليه وسلم لأن العباس حي والنبي صلى الله عليه وسلم قد مات، لأن الاستسقاء إنما يكون بالحي، لأن هذا القول باطل مردود بأدلة كثيرة: منها توسل الصحابة به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كما تقدم في القصة التي رواها

عثمان بن حنيف، وكما في حديث بلال ابن الحارث المتقدم، وكما في توسل آدم الذي رواه عمر رضي الله عنه كما تقدم، فكيف يعتقد عدم صحته بعد وفاته، وقد روى التوسل به قبل وجوده مع أنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره. فتلخص من هذا أنه يصح التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل وجوده وفي حياته وبعد وفاته، وأنه يصح التوسل أيضا بغيره من الأخيار كما فعله عمر رضي الله عنه حين استسقى بالعباس رضي الله عنه، وذلك من أنواع التوسل كما تقدم، وإنما خص عمر العباس رضي الله عنهما من سائر الصحابة لا ظهار شرف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فإن عليا رضي الله عنه كان موجودا وهو أفضل من العباس رضي الله عنه. قال بعض العارفين: وفي توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما دون النبي صلى الله عليه وسلم نكتة أخرى أيضا زيادة على ما تقدم، وهي شفقة عمر رضي الله عنه على ضعفاء المؤمنين وعوامهم، فإنه لو استسقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لربما تتأخر الإجابة لأنها معلقة بإرادة الله ومشيئته، فإذا تأخرت الإجابة ربما يقع وسوسة واضطراب لمن كان ضعيف الإيمان بسبب تأخر الإجابة، بخلاف ما إذا كان التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم فإنه إذا تأخرت الإجابة لا تحصل تلك الوسوسة والاضطراب. والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيرا ولا خلقا ولا إيجادا ولا إعداما ولا نفعا ولا ضرا إلا لله وحده لا شريك له، فلا نعتقد تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا للنبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الخلق والإيجاد والتأثير ولا لغيره من الأحياء والأموات، فلا فرق في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكذا بالأولياء والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء أو أمواتا

ص ١٥٩

لأنهم لا يخلقون شيئا وليس لهم تأثير في شيء، وإنما يتبرك بهم لكونهم أحياء الله تعالى، والخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له. وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات فإنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ونحن نقول (الله خالق كل شيء – والله خلقكم وما تعملون) فهؤلاء المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات هم الذين دخل الشرك في توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات، فهم الذين اعتقدوا تأثير غير الله تعالى، فكيف يدعون الحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك سبحانك هذا بهتان عظيم فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد، وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباء الله تعالى لما ثبت أن الله يرحم العباد بسببهم سواء كانوا أحياء أو أمواتا، فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله تعالى، وهؤلاء سبب عادي في ذلك لا تأثير لهم، وذلك مثل السبب العادي فإنه لا تأثير له. وحياة الأنبياء في قبورهم ثابتة بأدلة كثيرة استدل بها أهل السنة وكذا حياة الشهداء والأولياء، وليس هذا محل بسط الكلام

عليها. وشبهة هؤلاء المانعين للتوسل أنهم رأوا بعض العامة يتوسعون في الكلام ويأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ويطلبون من الصالحين أحياء وأمواتا أشياء جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى ويقولون للولي افعل لي كذا وكذا، وربما يعتقدون الولاية في أشخاص لم يتصفوا بها، بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة، وينسبون لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالا ومقامات ليسوا بأهل لها ولم يوجد فيهم شيء منها، فإنما أراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعا للايهام وسدا للذريعة وإن كانوا يعلمون أن العامة لا تعتقد تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا لغير الله تعالى، ولا تقصد بالتوسل إلا التبرك ولو أسندوا للأولياء شيئا لا يعتقدون فيهم تأثيرا. فنقول لهم: إذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة. فما الحامل لكم على تكفير الأمة عالمهم وجاهلهم خاصهم وعامهم، وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقا؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة وتأمروهم سلوك الأدب في التوسل مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازي مجازا عقليا كما يحمل على ذلك قول القائل: هذا الطعام أشبعني وهذا الماء أرواني وهذا الدواء أو الطبيب نفعني، فإن ذلك كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلي فإن الطعام لا يشبع والمشبع هو الله تعالى، والطعام سبب عادي لا تأثير له وكذا ما بعده. فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد الشيء لغير من هو له

ص ١٦٠

يجب حمله على المجاز العقلي، وإسلامه وتوحيده قرينة على ذلك كما نص على ذلك علماء المعاني في كتبهم وأجمعوا عليه. وأما منع التوسل مطلقا فلا وجه له مع ثبوته في الأحاديث الصحيحة ومع صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، فهؤلاء المنكرون التوسل المانعون منه: منهم من يجعله حراما، ومنهم من يجعله كفرا وإشراكا، وكل ذلك باطل لأنه يؤدي إلى اجتماع معظم الأمة على الحرام والاشراك، لأن من تتبع كلام الصحابة والعلماء من السلف والخلف يجد التوسل صادرا منهم، بل ومن كل مؤمن في أوقات كثيرة واجتماع أكثرهم على الحرام أو الإشراك لا يجوز لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لا تجتمع أمتي على ضلالة بل قال بعضهم إنه حديث متواتر، وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت الناس) فكيف تجتمع كلها أو أكثرها على ضلالة وهي خير أمة أخرجت للناس، فاللائق بهؤلاء المنكرين إذا أرادوا سد الذريعة ومنع الألفاظ الموهمة كما زعموا أن يقولوا: ينبغي أن يكون التوسل بالأدب وبالألفاظ التي ليس فيها إيهام، كأن يقول المتوسل: اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم وبالأنبياء قبله وبعبادك الصالحين أن تفعل بي كذا وكذا، لا أنهم يمنعون التوسل مطلقا، ولا أن يتجاسروا على تكفير المسلمين الموحدين الذين لا يعتقدون التأثير إلا لله وحده لا شريك له. ومما تمسك به هؤلاء المنكرون للتوسل قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) فإن الله نهى المؤمنين في هذه الآية أن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بمثل ما يخاطب بعضهم بعضا: كأن ينادوه باسمه، وقياسا

على ذلك لا ينبغي أن يطلب من غير الله تعالى كالأنبياء والصالحين الأشياء التي جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر وإن كان الطلب من الله تعالى على سبيل التأثير والإيجاد ومن غيره على سبيل التسبب والكسب لكنه ربما يوهم تأثير غير الله تعالى فمنع من ذلك الطلب لدفع هذا الايهام. والجواب أن هذا لا يقتضي المنع من التوسل مطلقا ولا يقتضي منع الطلب إذا صدر من موحد فإنه يحمل على المجاز العقلي بقرينة صدوره من موحد، فما وجه كونه حراما أو شركا؟ فلو قالوا إنه خلاف الأدب وأجازوا التوسل وشرطوا فيه أن يكون بالأدب والاحتراز عن الألفاظ الموهمة لكان له وجه، فالمنع مطلقا لا وجه له.

ص ١٦١

ومن الأدلة الدالة على صحة التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته

ما ذكره العلامة السيد السمهودي في خلاصة الوفا حيث قال: روى الدارمي في صحيحه عن أبي الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطا شديدا، فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها، فقالت انظروا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق. قال العلامة المراغي: وفتح الكوة عند الجدب سنة أهل المدينة يفتحون كوة في أسفل الحجرة وإن كان السقف حائلا بين القبر الشريف والسماء. قال السيد السمهودي. وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف والإجماع هناك وليس القصد إلا التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والاستشفاع به إلى ربه لرفعة قدره عند الله تعالى. وقال أيضا العلامة السيد السمهودي في خلاصة الوفا: إن التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين، وذكر كثير من علماء المذاهب الأربعة في كتب المناسك عند ذكرهم زيارة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يسن للزائر أن يستقبل القبر الشريف ويتوسل إلى الله تعالى في غفران ذنوبه وقضاء حاجاته ويستشفع به صلى الله عليه وسلم. قالوا: ومن أحسن ما يقول ما جاء عن العتبى، وهو مروي أيضا عن سفيان بن عيينة وكل منهما من مشايخ الشافعي رضي الله عنه، ثم بعد أن ذكر قصة العتبى المشهورة قال: وليس محل الاستدلال الرؤيا فإنها لا تثبت بها أحكام لاحتمال حصول الاشتباه على الرائي، وإنما محل الاستدلال كون العلماء استحسنوا للزائر الإتيان بما قاله الأعرابي: قال العلامة ابن حجر في [الجوهر المنظم] وروى بعض الحفاظ عن أبي سعيد السمعاني أنه روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنهم بعد دفنه صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام جاءهم أعرابي فرمى بنفسه على القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، وحثى من ترابه على رأسه وقال يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك قوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر

لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي إلى ربي، فنودي من القبر الشريف أن قد غفر لك وجاء ذلك عن علي أيضا من طريق أخرى، ويؤيد ذلك ما صح عنه صلى الله عليه

ص ١٦٢

وسلم من قوله حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض على أعمالكم، ما رأيت من خير حمدت الله، وما رأيت من شر استغفرت لكم . ومما ذكره العلماء في آداب الزيارة أنه يستحب أن يجدد الزائر التوبة في ذلك الموقف الشريف ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها توبة نصوحا، ويستشفع به صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل في قبولها ويكثر الاستغفار والتضرع بعد تلاوة قوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) ويقولون نحن وفدك يا رسول الله وزوارك جئناك لقضاء حقك والتبرك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا، فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ولا رجاء غير بابك نصله، فاستغفر لنا واشفع لنا عند ربك واسأله أن يمن علينا بسائر طلباتنا ويحشرنا في زمرة عباده الصالحين والعلماء العاملين. وفي الجوهر المنظم أيضا أن أعرابيا وقف على القبر الشريف، وقال: اللهم إن هذا حبيبك وأنا عبدك، والشيطان عدوك، فإن غفرت لي سر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ورضي عدوك وهلك عبدك، وأنت يا رب أكرم من أن تغضب حبيبك وترضي عدوك وتهلك عبدك: اللهم إن العرب إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره، وإن هذا سيد العالمين فاعتقني على قبره يا أرحم الراحمين، فقال له بعض الحاضرين يا أخا العرب: إن الله قد غفر لك بحسن هذا السؤال. وذكر علماء المناسك أيضا أن استقبال قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة. قال العلامة المحقق الكمال بن الهمام إن استقبال القبر الشريف أفضل من استقبال القبلة وأما ما نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن استقبال القبلة أفضل فمردود بما رواه الإمام نفسه في مسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: من السنة استقبال القبر المكرم وجعل الظهر للقبلة، وسبقه إلى ذلك ابن جماعة، فنقل استحباب استقبال القبر الشريف عن الإمام أبي حنيفة أيضا، ورد قول الكرماني إنه يستقبل القبلة، وقال ليس بشيء. قال في الجوهر المنظم: ويستدل لاستقبال القبر أيضا بأنا متفقون على أنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره يعلم بزائره، وهو صلى الله عليه وسلم لو كان حيا لم يسع الزائر إلا استقباله واستدبار القبلة، فكذا يكون الأمر حين زيارته في قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وإذا اتفقنا في المدرس من العلماء بالمسجد الحرام المستقبل للقبلة أن الطلبة يستقبلونه ويستدبرون

ص ١٦٣

الكعبة، فما بالك به صلى الله عليه وسلم، فهذا أولى بذلك قطعا. وقد تقدم قول الإمام مالك رحمه الله

للمنصور: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى؟ بل استقبله واستشفع به. قال العلامة الزرقاني في شرح المواهب إن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلا له مستدبرا للقبلة ؛ ثم نقل عن مذهب الإمام أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله تعالى والجمهور مثل ذلك. وأما مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه، والراجع عند المحققين منهم أن يستقبل القبر الشريف كيفية المذاهب، وكذا القول في التوسل، فإن المرجح عند المحققين منهم جوازه، بل استحبابه لصحة الأحاديث الدالة على ذلك فيكون المرجح عند الحنابلة موافقا لما عليه أهل المذاهب الثلاثة. وأما ما ذكره الآلوسي في تفسيره من أن بعضهم نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه منع التوسل فهو غير صحيح إذ لم ينقله عن الإمام أحمد من أهل مذهبه، بل كتبهم طافحة باستحباب التوسل ونقل المخالف غير معتبر، فإياك أن تغتر بذلك. وقد بسط الإمام السبكي نصوص المذاهب الأربعة في استحباب التوسل في كتابه: المسمى [شفاء السقام في زيارة خير الأنام] فراجعه إن شئت. وفي المواهب اللدنية للإمام القسطلاني: وقف أعرابي على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فاعتقني من النار على قبر حبيبك فهتف به هاتف: يا هذا تسأل العتق لك وحدك؟ هلا سألت العتق لجميع الخلق: يعني من المؤمنين ؛ اذهب فقد أعتقتك، ثم أنشد القسطلاني أحد البيتين المشهورين، وشارحه الزرقاني البيت الآخر، وهما: إن الملوك إذا شابت عبيدهم * في رقهم أعتقوهم عتق أحرار وأنت يا سيدي أولى بذا كرما * قد شبت في الرق فاعتقني من النار ثم قال في المواهب وعن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه وسلم، فقال يا رب إنا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وسلم فلا تردنا خائبين، فنودي: يا هذا، ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فأرجع أنت ومن معك من الزوار مغفورا لكم. وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول: بلغنا أن من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال هذه الآية (إن الله وملائكته يصلون

على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقال صلى الله عليك يا محمد حتى يقولها سبعين مرة، ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة. قال الشيخ زين الدين المراغي وغيره: الأولى أن يقول: صلى الله عليك يا رسول الله بدل قوله: يا محمد للنهي عن ندائه باسمه حيا وميتا، صلى الله عليه وسلم، وابن أبي فديك من أتباع التابعين، وكان من الأئمة الثقات المشهورين، وهو من المروي عنهم في الصحيحين وغيرهما من كتب السنن. قال الزرقاني في شرح المواهب: اسمه محمد بن إسمعيل بن مسلم الديلمي. مات سنة مائتين على الصحيح، وهذا الذي نقله في المواهب عن ابن أبي فديك رواه عنه البيهقي. وفي شرح المواهب للزرقاني أن الداعي إذا قال: اللهم إني أستشفع إليك بنبيك، يا نبي الرحمة اشفع لي عند ربك، استجيب له. فقد اتضح لك من هذه النصوص المروية عن سلف الأمة وخلفها أن التوسل به صلى الله

عليه وسلم وطلب الشفاعة منه وزيارته ثابتة عنهم، وأنها من أعظم القربات، وأن التوسل به واقع قبل خلقه وبعد خلقه في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ويكون أيضا بعد البعث في عرصات القيامة، وأحاديث التوسل به يوم القيامة في الصحيحين وغيرهما فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها. فبطل بما ذكرناه من النصوص جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب وما افتراه وليس به على المؤمنين. قال في المواهب: ويرحم الله ابن جابر حيث قال: به قد أجاب الله آدم إذ دعا * ونجى في بطن السفينة نوح وما ضرت النار الخليل لنوره * ومن أجله نال الفداء ذبيح ثم قال في المواهب: فالتوسل به صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء. قال: وفي كتاب [مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام] للشيخ أبي عبد الله بن النعمان طرف من ذلك، ثم ذكر في المواهب كثيرا من البركات التي حصلت له ببركة توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم. وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي به، وأنشد أبياتا في آخرها: وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم هذا البيت، بل قال أنس لما أنشده الأعرابي الأبيات قام يجر رداءه حتى رقى المنبر ودعا لهم، فلم يزل يدعو حتى أمطرت

ص ١٦٥

السماء وهو على المنبر وفي صحيح البخاري أنه لما جاء الأعرابي وشكا للنبي صلى الله عليه وسلم القحط، فدعا الله فانجابت السحاب بالمطر قال صلى الله عليه وسلم لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقال علي رضي الله عنه يا رسول الله كأنك أردت قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل فتهلل وجه النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينكر إنشاد البيت ولا قوله يستسقى الغمام بوجهه ولو كان في ذلك إشراك لأنكره ولم يطلب إنشاده، وكان سبب إنشاء البيت من أبي طالب من جملة قصيدة مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشا أصابهم قحط فاستسقى بهم أبو طالب وتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فاغدودق عليهم السحاب بالمطر وكان ذلك قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فأنشأ أبو طالب تلك القصيدة، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلو لا محمد ما خلقت الجنة والنار ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن. قال في الجوهر المنظم: فإذا كان له صلى الله عليه وسلم هذا الفضل والخصوصية أفلا يتوسل به؟ وذكر القسطلاني في شرحه على البخاري عن كعب الأحبار أن بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم. فعلم بذلك أن التوسل مشروع حتى في الأمم السابقة وقال السيد السمهودي في خلاصة الوفا: إن العادة جرت أن من توسل عند شخص بمن له قدر عنده يكرمه لأجله ويقضي حاجته، وقد يتوجه بمن له جاه إلى من هو

أعلى منه، وإذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة كما في صحيح البخاري في حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار فأطبق عليهم فتوسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بأرجى عمل له فانفرجت الصخرة التي سدت الغار عليهم، فالتوسل به صلى الله عليه وسلم أحق وأولى لما فيه من النبوة والفضائل سواء كان ذلك في حياته أو بعد وفاته، فالمؤمن إذا توسل به إنما يريد نبوته التي جمعت الكمالات. وهؤلاء المانعون للتوسل يقولون: يجوز التوسل بالأعمال الصالحة مع كونها أعراضا، فالذوات الفاضلة أولى، فإن عمر رضي الله عنه توسل بالعباس رضي الله عنه، وأيضا لو سلمنا لهم ذلك فنقول لهم إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة فما المانع من جوازها بالنبي صلى الله عليه وسلم باعتبار ما قام به من النبوة والرسالة والكمالات التي فاقت كل كمال وعظمت على كل عمل صالح في الحال والمآل مع ما ثبت

ص ١٦٦

من الأحاديث الدالة على ذلك وعلى الإذن فيه، ومثله سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكذا الأولياء وعباد الله الصالحون لما فيهم من الطهارة القدسية ومحبة رب البرية وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين والمعرفة لله رب العالمين، وذلك كله سبب لكونهم من عباد الله المقربين فيقضي سبحانه وتعالى بالتوسل بهم حوائج المؤمنين. وينبغي أن يكون ذلك التوسل مع الأدب الكامل واجتناب الألفاظ الموهمة تأثير غير الله تعالى. ومن أدلة جواز التوسل قصة سواد بن قارب رضي الله عنه التي رواها الطبراني في الكبير، وفيها أن سواد بن قارب أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته التي فيها: فأشهد أن الله لا رب غيره * وأنك مأمون على كل غائب وأنك أدنى المرسلين وسيلة * إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل * وإن كان فيما فيه شيب الذوائب وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة * بمغن فتيلا عن سواد بن قارب فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله أدنى المرسلين وسيلة ولا قوله وكن لي شفيعا، وكذا من أدلة التوسل مرثية صفية رضي الله عنها عمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها رثته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بأبيات قالت فيها: ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا * وكنت بنا برا ولم تك جافيا ففيها النداء مع قولها: أنت رجاؤنا، وسمع تلك المرثية الصحابة رضي الله عنهم، ولم ينكر عليها أحد قولها: يا رسول الله أنت رجاؤنا. قال العلامة ابن حجر في كتابه المسمى [بالخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان] في الفصل الخامس والعشرين: إن الإمام الشافعي أيام هو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه يجيئ إلى ضريحه يزوره فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به في قضاء حاجاته. وقد ثبت توسل الإمام أحمد بالشافعي رضي الله عنهما حتى تعجب ابنه عبد الله ابن الإمام أحمد من ذلك، فقال له الإمام أحمد إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن. ولما بلغ الإمام الشافعي أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم، وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: من كانت له إلى الله تعالى حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله تعالى بالإمام الغزالي، وذكر العلامة ابن حجر

ص ١٦٧

في كتابه المسمى: [بالصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة] أن الإمام الشافعي رضي الله عنه توسل بأهل البيت النبوي حيث قال: آل النبي ذريعتي * وهم إليه وسيلتي أرجو بهم أعطى غدا * بيد اليمين صحيفتي وذكر العلامة السيد طاهر بن محمد هاشم باعلوى في كتابه: المسمى [مجمع الأحباب] في ترجمة الإمام أبي عيسى الترمذي صاحب السنن، أنه رأى في المنام رب العزة فسأله عما يحفظ عليه الإيمان ويتوفاه عليه؟ قال فقال لي قل بعد صلاة ركعتي الفجر قبل صلاة فرض الصبح: إليه بحرمة الحسن وأخيه وجده وبنيه وأمه وأبيه نجني من الغم الذي أنا فيه يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الراحمين ؛ فكان الإمام الترمذي يقول ذلك دائما بعد صلاة الصبح ويأمر أصحابه به ويحثهم على المواظبة عليه، فلو كان التوسل ممنوعا لما فعله هذا الإمام ولا أمر بفعله والمواظبة عليه، وهو إمام حجة يقتدى به، بل هذا الأمر أعني التوسل لم ينكره قط أحد من السلف والخلف حتى جاء هؤلاء المنكرون. وفي الأذكار للنووي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر ثلاثا: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومحمد صلى الله عليه وسلم أجرني من النار . قال في شرح الأذكار خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء، وإلا فهو سبحانه وتعالى رب جميع المخلوقات فأفهم ذلك أنه من التوسل المشروع. وفي شرح حزب البحر للإمام زروق بعد ذكر كثير من الأخيار: اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك وما أحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك فتمم لنا ذلك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين. ولبعض العارفين دعاء مشتمل على قوله: اللهم رب الكعبة وبانيها وفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها نور بصري وبصيرتي وسرى وسريرتي، وقد جرب هذا الدعاء لتنوير البصر، وأن من ذكره عند الاكتحال نور الله بصره، وذلك من الأسباب العادية، وهي لا تأثير لها، والمؤثر هو الله وحده لا شريك له، فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والري لا تأثير لهما، والمؤثر هو الله وحده تعالى، وكما جعل الطاعة سببا للسعادة ونيل الدرجات جعل أيضا التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله وأمر بتعظيمهم سببا لقضاء الحاجات فليس في ذلك كفر ولا إشراك، ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجدها كلها

ص ١٦٨

مشتملة على التوسل ولم ينكر ذلك أحد عليهم حتى جاء هؤلاء المنكرون، ولو تتبعنا ما وقع من أكابر الأمة من التوسل لامتلأت بذلك الصحف وفيما ذكر كفاية. وإنما أطلت في ذلك ليتضح الأمر للمتشكك فيه غاية الاتضاح، لأن كثيرا من أتباع محمد بن عبد الوهاب يلقون إلى كثير من الناس شبهات يستميلونهم بها إلى اعتقادهم الباطل فعسى أن يقف على هذه النصوص من أراد الله حفظه من قبول شبهاتهم فلا يلتفت إليها ويقيم عليهم الحجة في إبطالها. قال في الجوهر المنظم: ولا فرق في التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل

أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه، لأن التوجه من الجاه، وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذي الجاه إلى من هو أعلى منه جاها، والاستغاثة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى في قلوب المسلمين غير ذلك ولا يقصد بهما أحد منهم سواه، فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه. نسأل الله العافية والمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فهو واسطة بينه وبين المستغيث، فهو سبحانه وتعالى مستغاث به حقيقة، والغوث منه خلقا وإيجادا، والنبي صلى الله عليه وسلم مستغاث به مجازا والغوث منه تسببا وكسبا، فهو على حد قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أي وما رميت خلقا وإيجادا إذ رميت تسببا وكسبا ولكن الله رمى خلقا وإيجادا، وكذا قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقوله صلى الله عليه وسلم ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم وكثيرا ما تجيئ السنة لبيان الحقيقة ويجيئ القرآن الكريم بإضافة الفعل إلى مكتسبه، ويسند إليه مجازا كقوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحد الجنة بعمله مع قوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فالآية بيان للسبب العادي الذي لا تأثير له، والحديث بيان للسبب الحقيقي وهو فضل الله تعالى. وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث باعتبار الكسب أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعا، فإذا قلت أغثني يا الله تريد الإسناد الحقيقي باعتبار الخلق والإيجاد، وإذا قلت أغثني يا رسول الله تريد الإسناد المجازي باعتبار الكسب والتوسط والتسبب بالشفاعة، ولو تتبعت كلام العلماء والأئمة لوجدت شيئا كثيرا من ذلك، ومنه ما مر في صحيح البخاري في مبحث الحشر ووقوف الناس للحساب يوم القيامة بينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم فتأمل تعبيره صلى الله عليه وسلم

ص ١٦٩

بقوله: استغاثوا بآدم فإن الإسناد مجازي إذ المستغاث به حقيقة هو الله تعالى، وصح عنه صلى الله عليه وسلم لمن أراد عونا أن يقول يا عباد الله أعينوني وفي رواية أغيثوني وجاء في قصة قارون لما خسف به أنه استغاث بموسى عليه السلام فلم يغثه وصار يقول يا أرض خذيه فعاتبه الله حيث لم يغثه وقال له استغاث بك فلم تغثه ولو استغاث بي لأغثته فإسناد الإغاثة إلى الله تعالى إسناد حقيقي، وإلى موسى عليه السلام مجازي. وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه إذ هو حي صلى الله عليه وسلم يعلم سؤال من يسأله، وقد تقدم حديث بلال بن الحارث رضي الله عنه المذكور فيه أنه جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله استسق لأمتك، أي ادع الله لهم، فعلم أنه صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما كان يطلب منه في حياته لعلمه بسؤال من يسأله مع قدرته على التسبب في حصول ما سئل فيه بسؤاله ودعائه وشفاعته إلى ربه عز وجل، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به في كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده في حياته وبعد وفاته، وكذا في عرصات القيامة فيشفع إلى ربه، وكل هذا مما تواترت

به الأخبار وقام به الإجماع قبل ظهور المانعين منه، فهو صلى الله عليه وسلم له الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه وأولاه. وأما تخيل بعض المحرومين أن منع التوسل والزيارة من المحافظة على التوحيد، وأن فعل ذلك مما يؤدي إلى الشرك فهو تخيل فاسد باطل، فالتوسل والزيارة إذا فعل كل منهما مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا يؤدي إلى محذور ألبتة، والقال بمنع ذلك سدا للذريعة متقول على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وكأن هؤلاء المانعين للتوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم فحيثما صدر من أحد تعظيم له صلى الله عليه وسلم حكموا على فاعله بالكفر والاشراك، وليس الأمر كما يقولون، فإن الله تعالى عظم النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية، ورحم الله الشيخ الابوصيرى حيث قال: دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم فليس في تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والاشراك، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكالملائكة والصديقين والشهداء والصالحين. قال

ص ١٧٠

الله تعالى (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقال تعالى (ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه) ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومس الركن اليماني، وتقبيل الحجر الأسود، وبالصلاة خلف المقام، وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم، ونحن في ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ولم نعتقد تأثيرا لغيره ولا نفعا ولا ضرا، فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى. والحاصل أن هنا أمرين: أحدهما وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ورفع رتبته عن سائر الخلق، والثاني إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد في مخلوق مشاركة الباري سبحانه وتعالى في شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة، ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر. وأما من بالغ في تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات الباري عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعا، وذلك هو القول الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، وإذا وجد في كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلي ولا سبيل إلى تكفيرهم إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة، فمن ذلك قوله تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلي لأنها سبب في الزيادة، والذي يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده، وقوله تعالى (يوما يجعل الولدان شيبا) فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلي، لأن اليوم محل لجعلهم شيبا، فالجعل المذكور واقع في اليوم، والجاعل حقيقة هو الله تعالى وقوله تعالى

(ولا يغوث ويعوق ونسرا، وقد أضلوا كثيرا) فإسناد الاضلال إلى الأصنام مجاز عقلي لأنها سبب في حصول الاضلال، والهادي والمضل هو الله تعالى وحده، وقوله تعالى حكاية عن فرعون (يا هامان ابن لي صرحا) فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلي لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبني بنفسه، والباني إنما هو الفعلة. وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقي والمجازي فلا حاجة إلى الإطاعة بنقلها. وقال العلماء: إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف في جعله إسنادا مجازيا لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده فهو الخالق للعباد وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحي ولا لميت

ص ١٧١

فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع في الإشراك، وأما الفرق بين الحي والميت مع اعتقاد أن الحي يخلق أفعال نفسه فهو اعتقاد المعتزلة، فلو كان هؤلاء الذين يريدون المحافظة على التوحيد بزعمهم، وأن مرادهم منع الألفاظ الموهمة وسد الذريعة يقتصرون على منع العامة عن الألفاظ الموهمة تأثير غير الله تعالى تأدبا، ومع هذا فإذا صدرت منهم تحمل على المجاز العقلي، ويجيزون لهم التوسل مع المحافظة على الأدب لكان لكلامهم وجه. وأما المنع منه بالكلية فهو مصادم للأحاديث الصحيحة ولفعل السلف والخلف. فعليك باتباع الجمهور والسواد الأعظم. قال الله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بالسواد الأعظم فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية وقال صلى الله عليه وسلم من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . وقد ذكر العلامة ابن الجوزي في كتابه المسمى: [تلبيس إبليس] أحاديث كثيرة في التحذير من مفارقة السواد الأعظم: منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطب في الجابية فقال من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد وفي حديث عرفجة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة وحديث أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يد الله على الجماعة، فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاة من الغنم ، وحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاذة القاصية والنائية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة العامة والمجسد، وحديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله تعالى لن يجمع أمتي إلا على هدى، فهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات القرآن التي نزلت في المشركين، فحملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل، وتوصلوا بذلك إلى

تكفير أكثر الأمة من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد وعوام الخلق، وقالوا: إنهم مثل أولئك المشركين الذين قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة. وأما المؤمنون فما

ص ١٧٢

يعتقد أحد منهم هذا الاعتقاد فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين، سبحانك هذا بهتان عظيم. وشبهة هؤلاء الخوارج في المنع من طلب الشفاعة منه صلى الله عليه وسلم أنهم يقولون إن الله تعالى قال في كتابه العزيز (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وقال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فالطالب للشفاعة من أين يعلم حصول الإذن للنبي صلى الله عليه وسلم في أنه يشفع له حتى يطلب الشفاعة منه، ومن أين يعلم أنه ممن ارتضى حتى يطلب الشفاعة منهم. واحتجاجهم هذا مردود بالأحاديث الصحيحة الصريحة في حصول الإذن له صلى الله عليه وسلم في أنه يشفع لمن قال بعد الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة إلى آخر الدعاء المشهور ولمن صلى على النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، ولمن زار قبره صلى الله عليه وسلم بل جاءت أحاديث كثيرة صريحة في شفاعته صلى الله عليه وسلم لعصاة أمته كقوله صلى الله عليه وسلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي فكل من مات مؤمنا فإنه يدخل في شفاعته صلى الله عليه وسلم، فهي ثابتة لجميع المؤمنين ومأذون له صلى الله عليه وسلم فيها، فالطالب للشفاعة كأنه يتوسل إلى الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أن يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه الله عليه، فيشفع. فيه نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا حاجة إلى التطويل ببسط الدلائل في ذلك مع وضوح الأمر إلا لمن عميت بصيرته. وأما شبهتهم في المنع من النداء، فقالوا: إن النداء والخطاب للجمادات والغائبين والأموات من الشرك الأكبر الذي يباح به الدم والمال، ولا مستند لهم في ذلك بل الأحاديث الصحيحة الصريحة في بطلان قولهم هذا، وزعموا أن النداء للأموات والغائبين والجمادات يسمى دعاء وأن الدعاء عبادة، بل الدعاء مخ العبادة وحملوا كثيرا من الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على الموحدين، وقد تقدم ذكر كثير من تلك الآيات، وهذا كله منهم تلبيس في الدين وتضليل لأكثر الموحدين، فإنه وإن كان النداء قد يسمى دعاء كما في قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) لكن ليس كل نداء عبادة، ولو كان كل نداء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات، فيكون كل نداء ممنوعا مطلقا، وليس الأمر كذلك، وإنما النداء الذي يكون عبادة هو نداء من يعتقدون ألوهيته واستحقاقه العبادة فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه، فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى واعتقاد التأثير لغير الله تعالى. وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته ولا تأثيره فإنه ليس عبادة، ولو كان لميت أو غائب أو جماد، وذلك كله وارد في كثير

ص ١٧٣

من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة، فقولهم إن نداء الميت والجماد والغائب دعاء وكل دعاء عبادة غير صحيح على إطلاقه وعمومه ولو كان كل نداء عبادة لامتنع نداء الحي والميت فإنهما مستويان في أن كلا منهما لا تأثير له في شيء ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ولا تأثير لأحد سواه، فالدعاء الذي هو مخ العبادة هو الرغبة للإله والخضوع بين يديه، وسأذكر لك كثيرا من الأحاديث والآثار التي جاء فيها النداء والخطاب للأموات والغائبين والجمادات وإن تقدم كثير من ذلك فلا بأس بإعادته، فمنها حديث الضرير الذي رواه عثمان بن حنيف رضي الله عنه، فإن فيه يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك وتقدم أن الصحابة رضي الله عنهم استعملوا ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وحديث بلال بن الحارث رضي الله عنه فإن فيه أنه جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله استسق لأمتك ففيه النداء له بعد وفاته والخطاب بالطلب منه أن يستسقي لأمته. والأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور في كثير منها النداء والخطاب للأموات كقوله السلام عليكم يا أهل القبور، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ففيها نداء وخطاب، وهي أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وتقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف: يا رسول الله إني جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي، وصح عن بلال بن الحارث رضي الله عنه أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة فصار يقول: والمحمداه والمحمداه، وصح أيضا أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما قاتلوه مسيلمة الكذاب كان شعارهم: والمحمداه والمحمداه، وفي الشفاء للقاضي عياض أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما خدرت رجله مرة، فقيل له: اذكر أحب الناس إليك، قال والمحمداه فانطلقت رجله. وجاء الخطاب وصورة النداء في التشهد الذي يأتي به المسلم في كل صلاة وعلمه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فإن فيه: السلام عليك أيها النبي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل أرضا قال: يا أرض ربي وربك الله ففيه الخطاب والنداء للجماد، وذكر الفقهاء في آداب السفر: أن المسافر إذا انفلتت دابته بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله احبسوا، وإذا أضل شيئا أو أراد عونا فليقل: يا عباد الله أعينوني أو أغيثوني فإن له عبادا لا تراهم.

ص ١٧٤

واستدل الفقهاء على ذلك بما رواه ابن السني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادي يا عباد الله احبسوا فإن الله عبادا يحيبونه ففيه نداء وطلب نفع: أي التسبب في ذلك من عباد الله الذين لم يشاهدهم ؛ وفي حديث آخر رواه الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا، وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل: يا عباد الله أعينوني، وفي رواية أغيثوني فإن الله عبادا لا تروهم قال العلامة ابن حجر في حاشية [إيضاح المناسك] وهو مجرب كما قاله الراوي، وروى أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد . وذكر الفقهاء في آداب السفر أنه يسن للمسافر الإتيان بهذا الدعاء عند إقبال الليل وفيه النداء والخطاب للجماد ؛ وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما والدارمي عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال ربي وربك الله ففيه خطاب للجماد.

وصح أنه لما توفي صلى الله عليه وسلم أقبل أبو بكر رضي الله عنه حين بلغه الخبر، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه ؛ ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك . وفي رواية للإمام أحمد فقيل جهته، ثم قال وانبياه، ثم قبله ثلاثا وقال واصفياه ثم قبله ثلاثا وقال واخليلاه ففي ذلك نداء خطاب له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. ولما تحقق عمر رضي الله عنه وفاته صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر رضي الله عنه، قال وهو يبكي بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا واتخذت منبرا لتسمعهم حن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون:

(يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد اتبعك في قصر عمرك من لم يتبع نوحا في كبر سنه وطول عمره . فانظر إلى هذه الألفاظ التي صدرت من عمر رضي الله عنه. وقد تعدد فيها النداء له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وقد رواها كثير من أئمة الحديث ؛ وذكرها القاضي عياض في الشفاء والغزالي في الإحياء والقسطلاني في المواهب اللدنية، وابن الحاج في المدخل فيبطل بها وبغيرها قول المانعين للنداء القائلين إن كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة، وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه وفي رواية إلينا جبريل نعاه والنعي هو الإخبار بالموت، وقد يكون الإخبار للعالم بموته تأسفا على فقده، فكل من الروايتين صحيح في المعنى، ففي هذا الحديث أيضا نداؤه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وفي المواهب: ورثته عمته صفية رضي الله عنها بمراث كثيرة، قالت في مطلع قصيدة منها: ألا يا رسول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا برا ولم تك جافيا ففي البيت نداؤه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، ولم ينكره عليها أحد من الصحابة رضي الله عنهم مع حضورهم

وسماعهم له، ومما جاء من النداء للميت التلقين له بعد دفنه وقد ذكره كثير من الفقهاء واستندوا في ذلك إلى حديث الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه، واعتضد بشواهد. وصورته أن يقول للميت عند قبره بعد دفنه يا عبد الله ابن أمة الله اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، قل رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، وبالكعبة قبلة وبالمسلمين إخوانا، ربي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ففي التلقين النداء والخطاب للميت، وحديث نداء النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش المقتولين ببدر بعد إلقائهم في القليب مشهور رواه البخاري وأصحاب السنن، وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول أيسركم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ . وأما ما جاء من الآثار عن الأئمة الأحبار والعلماء الأخيار والأولياء الكبار مما يدل على جواز ذلك النداء والخطاب فشئ كثير تنقضي دون نقله الأعمار، ومضى على ذلك

ص ١٧٦

القرون والأعصار وما وقع منهم إنكار، فكيف يجوز الإقدام على تكفير المسلمين بشيء قام على ثبوته البراهين: وفي الحديث الصحيح من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه قال العلماء ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم امرئ مسلم. فيجب الاحتياط في ذلك فلا يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة إلا بواضح قاطع للإسلام. وممن رد على محمد بن عبد الوهاب أحد أشياخه، وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي صاحب حواشي شرح مختصر بأفضل، ومن جملة ما قاله في الرسالة التي رد بها عليه: يا ابن عبد الوهاب سلام على من اتبع الهدى فإني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله تعالى فعرفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله، فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين وأنت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين. قال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ا هـ. والحاصل أن الذين اعتنوا بالرد عليه خلائق لا يحصون من مشارق الأرض ومغاربها من أرباب المذاهب الأربعة في كتب مبسوطة ومختصرة، وبعضهم التزم الرد عليه بنصوص مذهب الإمام أحمد، ليبين له أنه كاذب ملبس في انتسابه لمذهب الإمام أحمد رضي الله عنه. وأما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة وخلفها وانعقد الإجماع على استحبابها وجاء في فضلها والترغيب فيها أحاديث كثيرة: منها ما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول من زار قبري كنت له شفيعا وشهيدا وهذه شفاعة خاصة للزائر غير شفاعته صلى الله عليه وسلم للعصاة، وروى الدارقطني وابن السكن وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من زار قبري وجبت له شفاعتي . وفي رواية من جاءني زائرا لا تعمله حاجة غير زيارتي كان حقا على أن أكون له شفيعا يوم القيامة . وفي رواية لابن منده من زارني في مسجدي بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي . وفي رواية لابن عدي من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني والمراد من الجفاء غلظ الطبع والبعد والإعراض عن المحبوب والمراد أنه فعل فعل الجافي، لا أنه جفا جفاء حقيقيا لأن ذلك أذى ولا يجوز أذاه صلى الله عليه وسلم

ص ١٧٧

وفي رواية للدارقطني من زارني متعمدا كان في جواري اليوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة . زاد في رواية ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة ، وفي رواية رواها ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي، ومن زارني حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيدا، أو قال شفيعا والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة لا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرها مع إجماع السلف والخلف على استحبابها حتى ظهر المنكرون لها المانعون منها. وفي هذا القدر كفاية ومقنع، لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع. وبمجموع ما ذكرناه يبطل جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب ولبس به على المؤمنين واستباح هو ومن تبعه دماءهم وأموالهم ولم ينتدب لمحاربته ومن تبعه أحد مثل سيدنا الشريف غالب رحمه الله تعالى، فإنه قام بهذا الأمر أتم قيام وبذل فيه جميع وسعه سنين متطاولة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا، وتقدم أن الشريف مسعودا ومساعدا وأحمد بن سعيد وسرورا كل منهم لم يأذن لأحد من أتباعه في الحج ا ه كلام السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى. الباب الرابع في نقل عبارات علماء المذاهب الأربعة في الرد على ابن تيمية، والكلام على بعض كتبه ومخالفته أهل السنة في بعض المسائل المهمة، ومنها اعتقاد الجهة في جانب الله، تعالى وتقدس فمن عاصره الإمام صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل الشافعي وقد ناظره، ومنهم الإمام أبو حيان وكان صديقا له فلما اطلع على بدعه رفضه رفضا بتا وحذر الناس منه، ومنهم الإمام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيرا ولم أطلع على كتب هؤلاء الثلاثة وإنما ذكرهم ابن حجر وغيره، ومنهم الإمام كمال الدين الزملكاني الشافعي المتوفي سنة ٧٢٧ هـ. قال ابن الوردي في تاريخه كان غزير العلم كثير الفنون مسدد الفتاوى دقيق الذهن وذكر له في كشف الظنون [كتاب الدرة المضية في الرد على ابن تيمية] وقد ناظره في مسائله التي شذ بها عن المذاهب الأربعة ومن أشنعها مسألة منعه شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولا سيما سيد المرسلين والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبهم إلى رب العالمين (١٢ – شواهد الحق)

ص ١٧٨

ولم أطلع على كتابه هذا، وإنما اطلعت له على قصيدة بليغة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم تعرض فيها للرد على هذه الفرقة المفتونة فرقة ابن تيمية بقوله: يا صاحب الجاه عند الله خالقه * مارد جاهك إلا كل أفاك أنت الوجيه على رغم العدا أبدا * أنت الشفيع لفتاك ونساك يا فرقة الزيغ لا لقيت صالحة * ولا شفى الله يوما قلب مرضاك ولا حظيت بجاه المصطفى أبدا * ومن أعانك في الدنيا ووالاك ومنهم الإمام الكبير الشهير تقي الدين السبكي الشافعي. قال رحمه الله تعالى في كتابه [شفاء السقام في زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام]: اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذي دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الإيمان ولاس مع به في زمن من الأزمان حتى جاء ابن تيمية، فتكلم في ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفاء الأغمار، وابتدع ما يسبق إليه في سائر الأعصار، وحسبك أن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله وضار به بين أهل الإسلام مثلة، وقد وقفت له على كلام طويل في ذلك رأيت من الرأي القويم أن أميل عنه إلى الصراط المستقيم ولا أتبعه بالنقض والإبطال، فإن دأب العلماء القاصدين لإيضاح الدين وإرشاد المسلمين تقريب المعنى إلى أفهامهم وتحقيق مراده وبيان حكمه، ورأيت كلام هذا الشخص بالضد من ذلك فالوجه الإضراب عنه انتهى. وكتابه هذا [شفاء السقام] هو الذي قال فيه الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية في مبحث زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ما نصه: وللشيخ تقي الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية المحمدية، وأنه ليس من القرب بل بضد ذلك ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في [شفاء السقام] فشفى سدور المؤمنين ا هـ. وقد قال في خطبته وضمنت هذا الكتاب الرد على من زعم: يعني ابن تيمية أن أحاديث الزيارة كلها موضوعة وأن السفر إليها بدعة غير مشروعة، وهذه المقالة أظهر فسادا من أن يرد عليها العلماء، ولكني جعلت هذا الكتاب مستقلا في الزيارة وما يتعلق بها مشتملا من ذلك على جملة يعز جمعها على طالبها ا هـ. وقال بعد ذلك في كتابه المذكور: وهذا الرجل يعني ابن تيمية قد تخيل أن الناس بزيارتهم متعرضون للإشراك بالله تعالى وبنى كلامه كله على ذلك وكل دليل ورد عليه يصرفه إلى غير هذا الوجه، وكل شبهة

عرضت له يستعين بها على ذلك. فهذا داء لا دواء له إلا بأن يلهمه الله الحق. ألا ترى هو لما زار قصد ذلك وأشرك مع الله غيره. انتهت عبارة شفاء السقام. ورأيت للإمام السبكي عبارة في هذا الشأن، وهي موجودة الآن بخط يده في المكتبة الخالدية في القدس الشريف، وقد أرسلت فاستكتبتها، وهذه صورتها بحروفها: قال رحمه الله تعالى في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب العقل والنقل لابن تيمية وهو كتاب [موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] المطبوع على هامش كتاب منهاج السنة النبوية كلاهما لابن تيمية

فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشي فتحركت أنوف خلق له ففكرت في انتشار أصحاب هذا الرجل وما يخشى من انتشار بدعته وعدم من يقاومهم، فكتبت في ليلة السبت عاشر شوال سنة إحدى وخمسين وسبعمائة رقعة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك، وفي آخرها إن كنت مصيبا في اعتقادي فقوني، وإن كنت مخطئا فاهدني، ثم أصبحت دفعتها للشيخ نور الدين السخاوي ليحملها فإنه عزم على الحج، وكان ذلك قبل الظهر، فلما كان الظهر جاءني شخص فأخبرني عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطى فيه، وكنت سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها، فلما تابعه هذا وقع في قلبي صحة ذلك، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك، ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع الشيخ نور الدين أيضا، فلما أكملت نظمها في ليلة الاثنين ثاني عشر الشهر المذكور وقع في قلبي أن الله تعالى ما هيأ لي تلك الأخبار في ذلك اليوم إلا هداية وجوابا عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانظر هذه القضية ما أعجبها وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على، وها أنا أذكر نص ما كتبته في تلك الورقة وما نظمته إن شاء الله، والمرجو من الله إرسالهما ووصولهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونجحهما إن شاء الله، أما الورقة فنص ما فيها: بسم الله الرحمن الرحيم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إني عبد ضعيف عاجز مسكين وجميع ما حصل لي من خير الدنيا والآخرة أنت كنت سببه وأنت وسيلتي إلى الله سبحانه: وإني نشأت على دين الإسلام سالما عن الشبه والبدع والأهوية والأغراض والميل إلى جانب من الجوانب، لا أعرف غير أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، ثم اشتغلت بالقرآن ثم بالفقه على مذهب الشافعي لا أعرف غير ذلك ولم أسمع ولم يدخل في قلبي شيء غير ذلك لا من العقائد ولا من غيرها، ثم اشتغلت بنحو وأصول فقه وفرائض، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيه إليك، ثم نظرت في شيء من العلوم العقلية واشتغلت بعلم الكلام

ص ١٨٠

على طريقة الأشعري لأنها المشهورة في بلادنا التي رأيت عليها أهلي وقومي وبقيت أراها طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال، ولا زلت على تلك حتى جاوزت عشرين سنة من عمري وأنا بالديار المصرية فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفق له بدمشق، وكان بها إذ ذاك علماء يقاومونه ؛ وفي مصر والقاهرة علماء وأكابر فأحضروه واتفق له ما اتفق بسبب العقائد ؛ ثم كتبت كلامه في التوسل والاستغاثة، وتكلم معه من هو أكبر مني ورأيته واجتمعت به كثيرا ثم عاد إلى الشام، ثم بلغنا كلامه في الطلاق، وأن من علق الطلاق على قصد اليمين. ثم حنث لا يقع عليه طلاق، ورددت عليه في ذلك، ثم بلغنا كلامه في السفر إلى زيارتك ومنعه إياه ورددت عليه في ذلك، ثم توفي وله أصحاب كثيرون يشيعون رأيه وينشرون تصانيفه، وجئت إلى دمشق كما يقال نائب شريعتك، ومن لي برضاك بذلك فأنا أقل عبيدك مسكت عن الكلام في العقائد من الجانبين لأني في نفسي أن عقولنا تضعف عن إدراك سبحات الحق جل جلاله، وأرى البقاء على الفطرة

السليمة والاكتفاء بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا ينبه العوام لشيء آخر، ومن كان عالما ينظر بما يتيسر له، والمعصوم من عصم الله. لكن الطلاق والزيارة أنا شديد الإنكار لقول ابن تيمية فيهما ظاهرا وباطنا، والعقائد لا يعجبني ما اعتمده فيها من تحريك قلوب العوام فيها، انتهت عبارة الإمام السبكي بحروفها، وهي مكتوبة بخطه بلا نقط، وهكذا جاءتني صورتها فنقطتها، أما القصيدة التي ذكرها فغير موجودة. ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني الشافعي الذي اتفقت الأمة بأسرها حتى الوهابية التابعون مذهب ابن تيمية، على جلالة قدره وغزارة علمه وتبحره في علم الكتاب والسنة وأنه خاتمة الحفاظ لم يأت بعده مثله. قال رحمه الله تعالى في [فتح الباري شرح البخاري] عند قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد بعد أن ذكر أن السبكي رد على ابن تيمية في مسألة تحريمه شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقره على ذلك ما نصه وهي من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية، ومن جملة ما استدل به على دفع ما ادعاه غيره من الإجماع على مشروعية زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ما نقل عن مالك أنه كره أن يقول زرت قبر النبي. صلى الله عليه وسلم، وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كره اللفظ أدبا، لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذي الجلال وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع، والله الهادي إلى الصواب. قال بعض المحققين قوله: إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف

ص ١٨١

فإما أن يقدر عاما فيصير لا تشد الرحال إلى مكان في أي أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص من ذلك لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعين الثاني. والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة، وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة، فبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين، والله أعلم. انتهت عبارة فتح الباري. وقال الحافظ ابن حجر أيضا فيما كتبه على الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر للحافظ ابن ناصر الدمشقي كما نقله الصفي البخاري في [القول الجلي]: ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة: يعني ابن تيمية مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا أفتى بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه رحمه الله تعالى من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصر الإسلام والدعاء إلى الله في السر والعلانية، فكيف لا ينكر على من أطلق عليه أنه كافر بل من أطلق على من سماء بشيخ الإسلام الكفر، وليس في تسميته بذلك ما يقتضي ذلك فإنه شيخ الإسلام بلا ريب، والمسائل التي

أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عنادا، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبري منه، ومع ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، أي كمسألة الزيارة والطلاق.
انتهى ما أردت نقله من كلام الحافظ ابن حجر. ومنهم السيد صفي الدين الحنفي البخاري نزيل نابلس ألف كتابا مستقلا سماه [القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين بن تيمية الحنبلي] ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء في الثناء عليه، ذكر كاتبه في آخره أنه انتهى تأليفه سنة ١٢٢٣ هـ، وقرظ عليه علماء ذلك العصر كالشيخ عبد الرحمن الكزبرى الدمشقي والشيخ محمد التافلاتى المغربي مفتي القدس، وهو مطبوع على هامش كتاب [جلاء العينين في محاكمة الأحمدين] للسيد نعمان أفندي الآلوسي البغدادي. قال صفي الدين في كتابه المذكور، قد نص على أنه، أي ابن تيمية بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط وإن كان قد خالف الأئمة الأربعة في مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر إلى زيارة

ص ١٨٢

القبور، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلي في الإبانة الصغرى، ثم قال صفي الدين وموضع آخر من كتابه المذكور: فإن قلت ما نقلته في هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب إليه: يعني من التشبيه والتجسيم فما بال علي القاري والتقي الحصني وابن حجر الهيتمي وغيرهم ينسبونه إلى أمور فظيعة. قلت: اعلم وفقك الله تعالى أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلا مشهورا بالعلم والفضل وحفظ السنة، وكان مبالغا في مذهب الإثبات وكان يكره التأويل أشد الكراهة، وكان يرد على الصوفية ما ذكروه في كتبهم من وحدة الوجود وما شاكلها كعادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين، فرد على الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عمر بن الفارض وعبد الحي بن سبعين وأضرابهم، وكان قد خالف الأئمة الأربعة في بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق، وكان يناظر عليهما، فقام عليه ناس وحدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه ما لم يقله من التشبيه والتجسيم وغير ذلك فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفية والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة واعتمدوا على السماع فوقع منهم ما قد وقع، وقد وقع مثل هذا لغير واحد من أهل العلم والفضل، ثم قال وقد أنكروا على الشيخ أشياء لا بأس بذكر الجواب عنها والاعتذار فأقول: قالوا يقول بحرمة السفر إلى زيارة القبور، وقد خالف في ذلك الإجماع. قال صفي الدين: قلت وهو مخطئ في ذلك أشد الخطأ: ولكن لا يلزم من القول به التفسيق فضلا عن التكفير لأنه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلك الدليل خطأ عندنا. انتهى كلام صفي الدين البخاري ومثله العلماء الذين أثنوا على ابن تيمية ذكروا خطأه الفاحش في مسائله التي خالف فيها الإجماع. ومنهم الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعي، قال رحمه الله تعالى: وبالجملة كان يعني الحافظ ابن القيم كما يدل عليه سياق كلامه رحمه الله تعالى من كبار العلماء

وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في مجر لجي، وخطؤه أيضا مغفور له لما صح في صحيح البخاري إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم، وما قاله في غاية الحسن، والحافظ المذكور ثقة حجة باتفاق، وقد ترجمه الحافظ ابن حجر بترجمة جليلة جدا فلا التفات إلى ما نقله عنه الشيخ تقي الدين الحصني. نعم كان يقول بقول الشيخ ابن تيمية في مسألة الطلاق فأوذي بسببه ومع أنه

خالف الأئمة الأربعة في ذلك فلم ينفرد به كما هو مبين في موضعه، وهو وإن كان خطأ فاحشا فلا يوجب التفسيق فافهم. انتهت عبارة القول الجلي. ومنهم شيخ الإسلام صالح البلقيني الشافعي. قال في القول الجلي: وقال شيخ الإسلام صالح ابن شيخ الإسلام عمر البلقيني رحمهما الله تعالى فيما كتبه على كتاب [الرد الوافر]: ولقد افتخر قاضي القضاة تاج الدين السبكي بأن الحافظ المزي لم يكتب لفظة شيخ الإسلام إلا لأبيه، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية، وللشيخ شمس الدين أبي عمر، فلولا أن ابن تيمية في غاية العلو في العلم والعمل ما قرن ابن السبكي أباه معه في هذه المنقبة التي نقلها ؛ ولو كان ابن تيمية مبتدعا أو زنديقا ما رضي أن يكون أبوه قرينا له. نعم قد ينسب الشيخ تقي الدين لأشياء أنكرها عليه معارضوه وانتصب للرد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في مسألتي الزيارة والطلاق وأفرد كلا منهما بتصنيف، وليس في ذلك ما يقتضي كفره ولا زندقته أصلا، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر، والسعيد من عدت غلطاته وانحصرت سقطاته، ثم إن الظن بالشيخ تقي الدين أنه لم يصدر ذلك منه تهورا وعدوانا حاش لله، بل لعله لرأي رآه وأقام عليه برهانا ولم نقف إلى الآن بعد التتبع والفحص على شيء من كلامه يقتضي كفره ولا زندقته إنتهى. ومنهم الحافظ جلال الدين السيوطي الشافعي. قال الصفي البخاري في القول الجلي بعد أن ذكر بعض من اعترضوا على ابن الفارض: وأما الذي في اعتقادنا فابن الفارض رجل كبير عظيم المقدار وكان شيخنا لجلال السيوطي مع ذمه القول بالوحدة المطلقة يعتقد فيه، وصنف جزءا وسماه [قمع المعارض لابن الفارض] وذكر على هامش كتاب [جلاء العينين] المطبوع ما نصه، وهو: أي الجزء الذي صنفه السيوطي في ابن الفارض جزء نحو خمس ورقات ذكر فيه أهل الفنون الشرعية والعقلية وأهل المذاهب الأربعة وتكلم على كل فريق منهم بما أداه إليه نظره، فقال في أثناء الكلام على الفقهاء الشافعية: واحذر الكبر والعجب بعلمك فيا سعادتك إن نجوت منه كفافا لا عليك ولا لك، فوالله ما رمقت عيني أوسع علما ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت في رزيته وفتنته حتى ملكت في سنين متطاولة فما وجدت قد أضره في أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا بالكبر والعجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار. فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور ونسأل الله المسامحة فقد قام عليه ناس ليسوا

ص ١٨٤

بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم وما سلطهم الله عليه بتقواهم أو جلالتهم بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك، وقال أيضا في أثناء الكلام على أصول الدين: فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة، وآراء الأوائل ومجاراة العقول، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأحوال السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها، وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجو والتضليل والتكفير بحق وبباطل، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منورا مضيئا على محياه سيما السلف، ثم صار مظلما مكسوفا عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالا أفاكا كافرا عند أعدائه، ومبتدعا فاضلا محققا بارعا عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام، وحامى حوزة الدين، ومحيي السنة عند عموم أصحابه هو ما أقول لك، انتهت عبارة الحافظ السيوطي. قال كاتبها صديق حسن خان البهوبالى: فأنت ترى كلامه في الشيخ فزنه بعقلك فإنه ظاهر التناقض، والله أعلم بالسرائر. وقد وزنت كلام السيوطي بعقلي فلم أجد فيه تناقضا، ولكنه حكى ما يعلمه من أحوال ابن تيمية، فمدحه تارة، وذمه أخرى بحسب أوصافه التي تقتضي المدح والذم، وليس في ذلك شيء من التناقض، رحمهما الله تعالى. ومنهم الشيخ عبد الرحمن الكزبرى الدمشقي الشافعي. قال في تقريظه على كتاب [القول الجلي] للصفي البخاري المذكور سابقا بعد أن أثنى على ابن تيمية، وأن ما يعزى إليه من بعض المخالفات في الأصول والابتداع هو منه برئ كما يصرح به النقل من كلامه في مشهور مؤلفاته الدال على أنه بموافقة أهل السنة جرى، وما يعزى إليه من المخالفات في بعض الفروع والطعن في السادة الصوفية أولي الشأن العلي المعروف. فذلك مما لا نوافقه عليه ولا نسلم شيئا من ذلك إليه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، انتهى كلام الكزبرى، وبه يتم ما نقلته من كتاب [القول الجلي] للشيخ صفي الدين البخاري وتقاريظه. ومنهم ملا علي القاري الحنفي. قال في شرحه على الشفاء: وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم كما أفرط غيره، حيث قال: كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل

ص ١٨٥

الثاني أقرب إلى الصواب لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفرا لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه في هذا الباب انتهت عبارته. ومنهم شهاب الدين الخفاجي الحنفي. قال رحمه الله تعالى في شرح الشفاء بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد : واعلم أن هذا الحديث هو الذي دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفا مستقلا، وهي منعه من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وشد الرحال إليه، وهو كما قيل. لمهبط الوحي

حقا ترحل النجب * وعند ذاك المرجى ينتهى الطلب فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل فضلا عن فاضل سامحه الله تعالى، انتهت عبارة الشهاب الخفاجي، وفسر الحديث المذكور بأن القوم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد: أي يسجدون إليها كما يسجدون للأوثان، وذكر رواية أخرى مصرحة بأولئك القوم، وهي قوله صلى الله عليه وسلم لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأنت على علم من أنه لا أحد من الزائرين يسجد لقبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك ممنوع قطعا بالاتفاق لهذا الحديث وغيره. وقال أيضا في موضع آخر من شرح الشفاء: روى القاضي عياض بسنده إلى ابن حميد أحد رواة مالك، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله أدب قوما، فقال (لا ترفعوا أصواتكم) ومدح قوما، فقال (الذين يغضون أصواتهم) وذم قوما، فقال (إن الذين ينادونك) وإن حرمته صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا، فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله. قال الشهاب الخفاجي، وفي هذا رد على ما قاله ابن تيمية من أن استقبال القبر الشريف في الدعاء عند الزيارة أمر منكر لم يقل به أحد ولم يرو إلا في حكاية مفتراة على الإمام مالك: يعني هذه القصة التي أوردها المصنف القاضي عياض رحمه الله تعالى هنا، ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه، فقوله أي ابن

ص ١٨٦

تيمية: إنها أمر منكر كذب محض ومجازفة من ترهاته، وقوله: لم ينقل ولم يرو باطل ؛ فإن مذهب مالك وأحمد والشافعي رضي الله تعالى عنهم استحباب استقبال القبر الشريف في السلام والدعاء، وهو مسطر في كتبهم. انتهت عبارة الشهاب الخفاجي. وقال أيضا في شرح الشفاء عند قول المصنف. وقال صلى الله عليه وسلم لا تجعلوا قبري عيدا أي كالعبد باجتماع الناس عنده، وقد تقدم تأويل الحديث، وأنه لا حجة فيه لما قاله ابن تيمية وغيره، فإن إجماع الأمة على خلافه يقتضي تفسيره بغير ما فهموه فإنه نزغة شيطانية، انتهت عبارة الشهاب. وقوله: وقد تقدم تأويل الحديث: أي في آخر عبارته السابقة، فإنه قال هناك: وأما قوله صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا قبري عيدا ، فقيل كره الاجتماع عنده في يوم معين على هيئة مخصوصة، وقيل المراد لا تزوروه في العام مرة فقط بل أكثروا الزيارة له كما مر. وأما احتماله للنهي عنها فهو بفرض أنه المراد محمول على حالة مخصوصة: أي لا تتخذوه كالعيد في العكوف عليه وإظهار الزينة عنده وغيره مما يجتمع له في الأعياد، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف. ومنهم العلامة خليل بن إسحاق المالكي الشهير. قال الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية: وينبغي للزائر أن يكثر الدعاء والتضرع والاستغاثة

والتشفع والتوسل به صلى الله عليه وسلم، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله فيه ا ه. قال الإمام الزرقاني في شرحه بعد ما ذكر: ونحو هذا في منسك العلامة خليل وزاد وليتوسل به صلى الله عليه وسلم ويسأل الله تعالى بجاهه في التوسل به، إذ هو محط أحمال الأوزار وأثقال الذنوب لأن بركة شفاعته وعظمها عند ربه لا يتعاظمها ذنب، ومن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم الذي طمس الله بصيرته وأضل سريرته. ألم يسمع قوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك) الآية ا هـ. ولعل مراده التعريض بابن تيمية، انتهت عبارة الإمام الزرقاني. ومنهم الإمام محمد الزرقاني المالكي. قال حرمه الله تعالى في شرحه على المواهب اللدنية عند قول الإمام القسطلاني فيها، والحكاية المروية عنه: أي عن الإمام مالك أنه أمر المنصور أن يستقبل القبر وقت الدعاء كذب على مالك كذا قال: يعني ابن تيمية، قال الزرقاني تبرأ: أي القسطلاني منه: أي من كلام ابن تيمية في تكذيب الحكاية، لأن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه [فضائل مالك]: ومن طريقه الحافظ أبو الفضل عياض في الشفاء بإسناد لا بأس به بل قيل إنه صحيح، فمن أين أنها كذب؟ وليس

في رواتها كذاب ولا وضاع، ولكنه: يعني ابن تيمية لما ابتدع له مذهبا، وهو عدم تعظيم القبور ما كانت، وأنها إنما تزار للاعتبار والترحم، بشرط أن لا يشد إليها رحل صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل لا يبالي بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مباهتة ومجازفة وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله ا هـ. وقال الزرقاني أيضا في موضع آخر من شرح المواهب عند قول القسطلاني فيها: وقد روى أن مالكا لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي: يا أبا عبد الله أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال له مالك ولم تصرف وجهك عنه؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى عز وجل يوم القيامة. قال الإمام القسطلاني: لكن رأيت منسوبا للشيخ تقي الدين بن تيمية في منسكه إن هذه الحكاية كذب على مالك، وأن الوقوف عند القبر بدعة، ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلة ويدعون في مسجده صلى الله عليه وسلم. قال: يعني ابن تيمية: ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، انتهت عبارة متن المواهب. قال الزرقاني في شرحه عند قول ابن تيمية: إن هذه الحكاية كذب على مالك: هذا تهور عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه [فضائل مالك] بإسناد لا بأس به وأخرجها القاضي عياض في الشفاء من طريقه عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه فمن أين أنها كذب؟ وليس في إسنادها وضاع ولا كذاب. وقال عند قول ابن تيمية: إن الوقوف عند القبر بدعة، ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه: نفيه مردود عليه من قصوره أو مكابرته. ففي الشفاء قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقال عند قول ابن تيمية: ومالك من أعظم الأئمة كراهية

لذلك: كذا قال، وهو خطأ قبيح، فإن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلا له مستدبرا القبلة، وممن نص على ذلك أبو الحسن القابسي وأبو بكر بن عبد الرحمن والعلامة خليل في منسكه ونقله في الشفاء عن ابن وهب عن مالك قال: إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا يقف وجهة إلى القبر لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم، ولا يمس القبر بيده ا ه.

ص ١٨٨

قال الزرقاني: وإلى هذا ذهب الشافعي والجمهور، ونقل عن أبي حنيفة قال ابن الهمام: وما نقل عنه أنه يستقبل القبلة مردود بما روي عن ابن عمر: من السنة أن يستقبل القبر المكرم ويجعل ظهره للقبلة وهو الصحيح من مذهب أبي حنيفة، وقول الكرماني مذهبه خلافه ليس بشيء لأنه صلى الله عليه وسلم حي ومن يأتي لحي إنما يتوجه إليه ا هـ. قال الزرقاني: ولكن هذا الرجل: يعني ابن تيمية ابتدع له مذهبا، وهو عدم تعظيم القبور، وأنها إنما تزار للترحم والاعتبار، بشرط أن لا يشد إليها رحل، فصار كل ما خالفه عنده كالصائل لا يبالي بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مجازفة وعدم نصفة، وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله ا هـ. ثم بعد عدة أوراق أعاد ذلك في المواهب: وأعاد الزرقاني الرد على ابن تيمية فقال: قوله ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، يقال له في أي كتاب نص على كراهته، فإنه نص في رواية ابن وهب عنه، وهو من أجل أصحابه على أنه يقف للدعاء، وأقل مراتب الطلب والاستحباب، وجزم به الحافظ أبو الحسن القابسي، وأبو بكر بن عبد الرحمن وغيرهما من أئمة مذهب مالك، وجزم به العلامة خليل بن إسحاق في منسكه، أفما يستحي هذا الرجل من تكذيبه بما لم يحط بعلمه؟ وأعاد قوله السابق في التشنيع على ابن تيمية أنه صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل إلى آخره. ومنهم الصلاح الصفدي الشافعي. قال في شرحه على لامية العجم عند قول الطغرائي: ولا أهاب الصفاح البيض تسعدني * باللمح من خلل الأستار والكلل وسألت الشيخ الإمام العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٧١٨ بدمشق المحروسة عن قوله تعالى (وأخر متشابهات) إلى آخر ما قاله هناك من أسئله وأجوبة لا غرض لنا في نقلها هنا، وإنما المقصود أنه اجتمع به وذاكره في العلم، ثم قال الصفدي في شرح قول الطغرائي: ويا خبيرا على الأسرار مطلعا * اصمت ففي الصمت منجاة من الزلل قال القاضي بهاء الدين بن شداد في أول سيرة صلاح الدين إنه يعني الشهاب السهروردي المقتول بحلب، كان حسن العقيدة كثير التعظيم لشعائر الدين قال: وأكثر الناس على أنه ملحد لا يعتقد شيئا وأنه إنما قتله عقله وكثرة كلامه. ويقال إن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى اجتمع هو وعبد الله ابن المقفع ليلة فتحادثا إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخيل

ص ١٨٩

كيف رأيته؟ قال رأيت رجلا علمه أكثر من عقله، وكذا كان ابن المقفع، فإنه قتله قلة عقله وكثرة كلامه شر قتلة ومات شر ميتة. قال الصفدي بعد ما ذكر: قلت وكذا أيضا كان الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى علمه متسع جدا إلى الغاية وعقله ناقص يورطه في المهالك ويوقعه في المضايق انتهى كلام الصفدي. ومنهم الإمام عبد الرؤوف المناوي الشافعي. قال رحمه الله تعالى في شرح الشمايل: وقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: إن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما أرى ربه واضعا يديه بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة رده الشارح: يعني ابن حجر المكي بأنه من قبيح ضلالهما، وهو مبني على مذهبهما من إثبات الجهة والجسمية، تعالى الله عما يقولوا الظالمون علوا كبيرا. قال المناوي بعد ما ذكر وأقول: أما كونهما من المبتدعة فمسلم. وأما كون هذا بخصوصه مبينا على التجسيم فغير مستقيم، ثم استدل لرد ذلك كما رده الشيخ علي القاري في شرحه على الشمايل أيضا، وأطال في الثناء عليهما وتبرئتهما من اعتقاد الجهة والتجسيم، وهو وإن أثنى عليهما من هذه الجهة هنا، لأنه لم يثبت عنده اعتقادهما هذا الاعتقاد الفاسد بل ثبت عنده من مؤلفاتهما خلافه فهو قد ذم ابن تيمية في شرح الشفاء بالعبارة المتقدمة عنه التي ذكر فيها تفريطه بتحريم السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم واستقرب كفر القائل بذلك قائلا لأن تحريم ما أجمع العلماء على استحبابه يكون كفرا، وهذا من ملا علي القاري غاية الذم لابن تيمية فلا ينفع بعده مدحه إياه في شرح الشمايل من جهة أخرى، وإنما ذكرت عبارة المناوي هنا لأنها مصرحة بأن كون ابن القيم وابن تيمية هما من المبتدعة أمر مسلم. ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطي الحنبلي الدمشقي ألف حفظه الله وجزاه أحسن الجزاء رسالة مخصوصة سماها [النقول الشرعية في الرد على الوهابية] وختمها بخاتمة في تأييد مذهب ساداتنا الصوفية وطبعها ونشرها فمما قاله في المقالة الأولى منها التي تكلم فيها على الاجتهاد: لا شك أن من ادعى ذلك في هذا الزمان عليه أمارة البهتان كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة من جهة نجد التي يخرج منها قرن الشيطان، كما ورد في الحديث حتى إنهم ربما لا يستدلون الإجماع ولا بالقياس أصلا بل يقتصرون على الاستدلال بالكتاب والسنة بلا فهم منهم لشيء من الوجوه السابقة أي شرائط الاجتهاد، ولا معرفة لهم بمبادئ العلوم فضلا عن مقاصدها وأصولها ويعلمون أولادهم من إبان نشأتهم هذه الدعوى ويجرئونهم على الاحتجاجات بظواهر النصوص

ص ١٩٠

وترك ما وراء ذلك عن جهل ومكابر، وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الإسلام ابن تيمية فقط مع أن الإمام المذكور قد خرج من مذهب الحنبلي في عدة مسائل تفرد بها وتهيأ بخصوصها للاجتهاد المطلق إلا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الأربعة. فمنها ما كان يجب المناظرة فيه ولم يفت به لأحد كمسألة إلغاء مفهوم العدد في الطلاق وأنه يقع واحدة وإن كان بلفظ الثلاث

والألف أو الأكثر من ذلك. ومنها تحريم شد الرحل لغير المساجد الثلاثة. ومنها منع الاستغاثة بالأنبياء والصالحين وغير ذلك مما هو مذكور في مواضعه فليست المسائل المذكورة من مذهب الإمام أحمد ولا ورد فيها رواية عن الإمام أحمد، ونص فقهاء الحنابلة على أنه لا يتابع فيها، فمن ادعى أنه حنبلي المذهب فليس له القول بها كما قالت بها هذه الفرقة المذكورة عن جهل وانطماس بصيرة. وفقنا الله وإياهم لاتباع سبيل المصطفى عليه الصلاة والسلام الداعي إليها على بصيرة هو ومن اتبعه. انتهت عبارة هذا العالم الحنبلي المنصف بحروفها. وذكر في المقالة الرابعة من هذه الرسالة جواز التوسل والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة وعبارات العلماء والفقهاء، ولا سيما فقهاء الحنابلة أهل مذهبه، وذكر حفظه الله في المقالة الخامسة استحباب زيارة القبور وشد الرجل إليها لا سيما زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم ونقل النقول الصحيحة الصريحة في ذلك عن علماء الحنابلة وكتبهم المعتمدة: كالمنتهى والإقناع وشرحيهما وصرح بأن ما قاله ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في منع ذلك هو خلاف الصحيح من مذهب الإمام أحمد وأثنى في خاتمة الكتاب على ساداتنا الصوفية رضي الله عنهم وجزاه أحسن الجزاء. ومنهم الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي الشافعي: وهو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين من أن يسري إليهم شيء من غلطاته الفاحشة، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صل يا لله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن نظر بعين الإنصاف شهد لهذا الإمام ابن حجر بالولاية، وأنه ربما يكون قد أطلعه الله على ما سيحصل في المستقبل من الأضرار العظيمة التي ترتبت على أقوال ابن تيمية من فرقته الوهابية التي هو أصل اعتقادها وأساس فسادها، ولا يخفى ما حصل منها من الأضرار العظيمة في حق المسلمين والإسلام. ولا سيما في الحرمين الشريفين وجزيرة العرب، فمن المحتمل احتمالا قريبا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد أطلع الإمام ابن حجر على ذلك على

سبيل الكرامة وهو أهل لذلك، فإنه رضي الله عنه كان من أكابر العلماء العاملين والأئمة الهادين المهديين، وهذا علمه وكتبه النافعة التي خدم بها الأمة المحمدية خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره إلى الآن ملأت الدنيا وانتفع بها الخاص والعام في جميع بلاد الإسلام، ومن كان كذلك لا يستبعد عليه أن يكون الله تعالى قد أكرمه بإطلاعه على بعض المغيبات. ومنها ما حدث من فرقة الوهابية أتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية والملة الإسلامية، ولذلك كان رضي الله عنه أشد أئمة المسلمين إنكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ومحاماة عن هذا الدين المبين ؛ وله في ذلك عبارات كثيرة في كتبه، ولا سيما في الفتاوى الحيثية ولم أر حاجة إلى نقلها هنا فمن شاءها فليراجعها. فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار أن علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية ومنهم من طعنوا

بصحة نقله كما طعنوا بكمال عقله فضلا عن شدة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحش في تلك المسائل التي شذ بها في الدين وخالف بها إجماع المسلمين، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وممن طعن بصحة نقله من الحنفية الشهاب الخفاجي في شرح الشفاء كما تقدم، ومن المالكية الإمام الزرقاني في شرح المواهب كما تقدم أيضا، ومن الشافعية الإمام السبكي كما هو مذكور في كتابه [شفاء السقام] فقد أوضح فيه مع توضيح خطأ ابن تيمية في رأيه عدم صحة نقله أحكاما شرعية استدل بها على تقوية بدعته ونسبها إلى علماء من أئمة المذاهب الأربعة لم يقولوا بها، وذكر مثل ذلك من عدم صحة نقله الإمام ابن حجر الهيتمي في ردوده عليه، ولا يخفى أن ذلك من أقوى العيوب في العالم وأشنع الأخلاق التي تضعف الثقة به وتسقط اعتبار نقله عن غيره وإن كان من أحفظ الحفاظ وأعلم العلماء ويقوى عدم اعتبار نقل ابن تيمية في بضع ما ينقله ما قاله في حقه الحافظ العراقي الكبير.